حول التأصيل الإسلامي للعلوم الإجتماعية

محمد قطب

موقعنا على الانترنت
منبر التوحيد والجهاد
http://www.tawhed.ws
http://www.almaqdese.com
http://www.alsunnah.info

الدّال على الخير كفاعله

مقَدّمَة

لا تتسع هذه العجالة بطبيعة الحال لحديث مفصل عن التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية ، فالموضوع واسع متشعب يشمل تخصصات مختلفة ، ويحتاج الحديث المفصل في أيٍّ منها إلى متخصص – أو متخصصين – يلمون بدقائقها ، ويغوصون في أعماقها ، ويجلّون خوافيها .. مع تعدد مجالات النظر واختلاف زوايا الرصد فـي كل علم من هذه العلوم .

إنما أردت من هذه العجالة أمرا أبسط من هذا بكثير ، أشعر في الوقت ذاته بأهميته ، وأهميه توجيه النظر إليه ، والاهتمام بشأنه .

أردت أولا أن أعرض فكرة سريعة عن " التأصيل الإسلامي " : ما هو ؟ ما المقصود به ؟ ما ضرورته بالنسبة لحياتنا الثقافية والفكرية ، بل السياسية والاقتصادية والاجتماعية كذلك ، وكلها أمور متداخلة في الكيان النفسي والحياتي ، وإن بدا لأول وهلة أن كلا منها منفصل عن الآخر بسبب تخصصه ، واختلاف طرق البحث فيه .

ثم أردت بعد ذلك أن أعرض فكرة عامة عن المنهج الذي نحتاج إليه في التأصيل الإسلامي لهذه العلوم ، التي يجمعها – على الرغم من تخصصها ، وتميز بعضها عن بعض – رابط مشترك ، أو قاعدة مشتركة هي " الإنسان " . فإذا حددنا : ما الإنسان ؟ ما تكوينه ؟ ما حدود طاقاته ؟ ما غاية وجوده ؟ ما السنن التي تحكم حياته ؟ فقد حددنا القاعدة المشتركة التي تلتقي عندها هذه العلوم جميعا وتتفرع عنها .

وكثيرا ما يوحي إلينا التخصص الدقيق – أو الغرور العلمي أحيانا – أن كلا من هذه العلوم عالم مستقل بذاته ، متميز عن غيره تمام التميز . وهو وَهْمٌ يكذبه الواقع ، وتكذبه النظرة الشاملة ، التي لا تحجبها الجدران الكثيفة التي يقيمها كل علم من هذه العلوم حول نفسه ، عن رؤية العناصر المشتركة التي تربط بينها جميعا ، والمنطلق المشترك الذي تصدر عنه ، وهو الكيان الإنساني المترابط ، الذي لا تتفكك أجزاؤه في أثناء حركته ، ولا ينفصل بعضها عن بعض ، وإن اختلفت اتجاهاته ، واهتماماته ، وألوان نشاطه ، ما بين لحظة وأخرى على مدار حياته كلها من بدئها إلى نهايتها .

* * *

وغني عن البيان أن العلوم الاجتماعية قد نمت وتأصلت في أوربا في ظل أجواء نفسية وفكرية معينة ، أثرت في توجيهها ، وهي أجواء الصراع بين الكنيسة والعلم ، أو بين الدين والحياة بصفة عامة ، وأن هذا الصراع قد خلّف بصماته الواضحة عليها ، فنشأت إما معادية للدين ، أو في القليل مبتعدة عنه ، متنصلة من الاتصال به أو الاستمداد من وحيه . ثم أصبح هذا في حس الناس هناك هو " المنهج العلمي " الذي يجب أن تسير عليه البحوث العلمية ، والذي تعتبر أي مخالفة له خللا في الفكر ، ونقضا " للروح العلمية " و " الموضوعية " وإفساداً للبحث العلمي !!

وهذا الموقف الذي يقفه الغرب في تناوله للعلوم الاجتماعية – وغيرها كذلك [1] – ليس موقفا علميا في حقيقته ، وإن ألبس ثوب العلم ! إنما هو موقف وجداني انفعالي في الحقيقة ، له أسبابه الكامنة في مجرى حياتهم ، وله تأثيره الخطير على " الحصيلة العلمية " التي أنتجها الغرب في هذه العلوم ، على الرغم مما بذل في دراستها من جهد ، وما استحدث في دراستها من أدوات ، وعلى الرغم من محاولة وضع " ضوابط علمية " للبحث !

إن العالِمَ الغربي يتوهم في نفسه التجرد العلمي ، والدقة الموضوعية ، في تناوله لهذه العلوم ، ولا يتنبه إلى أنه قد دخل الساحة بمقررات مسبقة ، تؤثر – بوعي أو بغير وعي – في طريقة تناوله للموضوع ، وفي النتائج التي يستخلصها من بحثه .. تلك المقررات هي وجوب إبعاد الدين وكل ما يستوحى منه إبعاداً كاملا من نطاق البحث ! بل إنه يتصور أن اتخاذه هذا الموقف المسبق ، والإصرار عليه ، هو الواجب الذي تفرضه عليه طبيعة البحث العلمي ، وأن مدى دقة النتائج المستخلصة ، ومصداقيتها ، متوقف على مدى إخلاصه في أداء هذا الواجب " المقدس " !

وهنا بالذات يفترق طريقنا عن طريقهم ، أو يجب أن يفترق !

إن الظروف التي مرت بها أوربا وأنتجت الانفصام بين العلم والدين ، هي ظروف خاصة بأوربا وحدها ، وليست ظروفا عالمية ؛ والمعايير التي أنشأتها تلك الظروف هي كذلك معايير محلية خاصة ، ليس لها صفة العموم ، ولا صفة اللزوم . ليست معايير " إنسانية " كما يحلو لأوربا أن تتصورها ، بدافع الغرور الذي أنشأه النجاح الحاضر للغرب ، الذي جعله يتوهم أن الغرب هو العالم ! وأن معاييره يجب أن تخضع لها البشرية كافة ، وأن من اختلف عنها فهو المخطئ الذي ينبغي أن يعدّل موقفه ، وينقاد إلى " المعيار الصحيح " !

أما نحن فنقول إن الظروف التي مر بها الغرب ، وأنشأت له معاييره الخاصة ، ليست هي ظروفنا التي عشناها في ظل الإسلام ، سواء في فترة ازدهار الإسلام ، وازدهار الحضارة الإسلامية والحركة العلمية الإسلامية ، أو في ظل الانحسار الذي طرأ على العالم الإسلامي حتى أوصل الأمة إلى حضيضها الذي وصلت إإليه ، فصارت كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم " غثاء كغثاء السيل " ، أو في ظل الصحوة الإسلامية المباركة التي تبشر بالخير ، رغم تكالب العالم كله على محاولة القضاء عليها .

في جميع هذه الأحوال الثلاثة كانت ظروفنا مختلفة عن ظروف الغرب ، فلا عجب أن تكون معاييرنا مختلفة عن معايير الغرب ، وأن يكون تناولنا للعلوم الاجتماعية – وغيرها كذلك – مختلفا عن التناول الغربي في أسسه وقواعده ، وإن التقى معه في بعض الجزئيات ، أو حتى في كثير من الجزئيات التي تتخذ صورة أبحاث معملية وتجريبية . ذلك أن الخلاف

1() لم تخل دراسة العلوم البحتة من التأثر بهذا المنهج المعادي للدين ، المتنصل منه ، وأوضح مثال على ذلك نسبة الخلق والتدبير للطبيعة بدلا من الله ! والزعم بأن هذا هو الأليق بالبحث العلمي !!

الجوهري ليس في إجراء التجارب المعملية ورصد نتائجها ، إنما هو في تفسير الظواهر الاجتماعية وتأصيلها ، المستمد أساسا من تصورنا للكيان الإنساني ، ولغاية الوجود الإنساني .. وهنا يقع الخلاف ، وهنا يكمن الدافع إلى ضرورة التأصيل الإسلامي لهذه العلوم !

وفي الغربة الثانية للإسلام ، التي أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] ، والتي نعايشها في واقعنا المعاصر ، فإن كثيراً من الناس من الذين درسوا هذه العلوم على طريقة الغرب وتأثروا بها ، يستنكرون هذه المحاولة ، ويرون فيها خروجا عن " المنهج العلمي " الذي ينبغي اتباعه في تناول هذه العلوم !

وقبل ظهور الصحوة الإسلامية لم يكن أحد من " المثقفين " يطيق مجرد الاستماع إلى الدعوة التي تهدف إلى إنتاج " أدب إسلامي " أو " اقتصاد إسلامي " أو " علم اجتماع إسلامي " أو " دراسات نفسية وتربوية إسلامية " .. وكانت تبدو بالنسبة لهم خبلا لا يقدم عليه عاقل ، وانحرافا خطيرا عن الجادة ! ولكن وجود الصحوة أمراً واقعا في الحياة الإسلامية قد خفف كثيرا من العجب والاستنكار الذي كانت الدعوة تواجه به في أول الأمر ، وإن لم يخفف من الحرب الموجهة للدعوة على أمل تعويقها أو القضاء عليها !

وهدفنا من هذه العجالة أن نسهم إسهاما متواضعا في إزالة الغربة عن الإسلام في ميدان من ميادينه الأصيلة التي ينبغي للصحوة أن توجه إليها اهتمامها ، وهو ميدان الفكر والثقافة ، الذي يحاول أعداء الإسلام بكل جهدهم أن يمنعوا الإسلام من دخوله أو التمكن فيه ! **(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)** [3] .

إننا نؤمن إيمانا راسخا بأن المستقبل للإسلام ، وبأن كل المقاومة التي يقوم بها أعداء الإسلام لن تمنع تمكنه مرة أخرى في واقع الأرض ..

بل نؤمن أكثر من ذلك بأن تحولا هائلا قد بدأ يأخذ سبيله في الغرب ذاته ، الذي يصدّر إلينا أفكاره المنحرفة ، ويتبعه فيها من يتبعه ممن استولى الغزو الفكري على قلوبهم وعقولهم . واستمع إلى هذه الكلمات الواضحة الدلالة من كلام الأمير تشارلس ولي عهد بريطانيا :

" ولكن القرون الثلاثة الأخيرة شهدت في العالم الغربي على أقل تقدير انقساما خطيرا في طريقة رؤيتنا للعالم المحيط بنا . فقد حاول العلم بسط احتكاره – بل سطوته المستبدة – على طريقة فهمنا للعالم ، وانفصل الدين والعلم أحدهما عن الآخر ، بحيث صرنا كما قال الشاعر " وردزورث " لا نرى إلا القليل في أمنا الطبيعة التي نملكها . لقد سعى العلم إلى الاستيلاء على عالم الطبيعة من الخالق (سبحانه وتعالى) فجزأ الكون إلى فرق ، وأقصى " المقدس " إلى زاوية نائية ثانوية من ملكة

2() قال صلى الله عليه وسلم : " بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ " أخرجه مسلم .

3() سورة التوبة [31] .

الفهم عندنا وأبعده عن وجودنا العلمي . والآن فقط بدأنا نقدر العواقب المدمرة لهذا الأمر .. "

ثم يقول : " إن الثقافة الإسلامية في شكلها التراثي جاهدت للحفاظ على هذه الرؤية الروحية المتكاملة للعالم ، بطريقة لم نجدها نحن – خلال الأجيال الأخيرة في الغرب – موائمة للتطبيق . وهناك الكثير مما يمكن لنا أن نتعلمه من رؤية العالم الإسلامي في هذا المضمار .. "

وفي الختام يقول : " إننا – نحن أبناء الغرب – نحتاج إلى معلمين مسلمين يعلموننا كيف نتعلم بقلوبنا كما نتعلم بعقولنا .. " [4]

إن الدلالة في هذه الكلمات واضحة .. لقد بدأ بعض العقلاء في الغرب يدركون مدى التدمير الذي أحدثه الفصام النكد بين الدين والعلم وبين الدين والحياة . وبدءوا يدركون أن المنهج الإسلامي في هذا المجال هو المنهج الصحيح .

ولا يدفعنا الوهم أن نظن أن آثار هذا التحول ستطرق أبوابنا صباح الغد ! فما زال بين جموع الناس في الغرب وبين إدراك هذه الحقائق فجوة لا يعلم مداها إلا الله . وما زال بين الغرب الصليبي وبين الإسلام من العداء التقليدي ما تحتاج إزالته إلى جهود لا يعلم مداها إلا الله ..

ولكن تبقى الدلالة واضحة بالنسبة للمستقبل ..

المستقبل للإسلام ..

ومقتضى ذلك أن ندرك أن التأصيل الإسلامي للمعرفة – في جميع مجالاتها – ليس حاجة للمسلمين وحدهم في واقعهم المعاصر ، إنما هو أمر لازم للبشرية كلها ، ليخرجها من الظلمات إلى النور .

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ [5] وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [6] .

اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وممن يهتدون بكتابك إلى الصراط المستقيم .

محمد قطب

4() عن جريدة الشرق الأوسط ، العدد 6592 بتاريخ 15 / 12 / 1996 .
5() أي أنهم اختلفوا فبعث الله النبيين ..
6() سورة البقرة [213] .

ظروف أوربا

من المعلوم عند المؤرخين والمفكرين الأوربيين أن الدين الذي اعتنقته أوربا لم يكن هو الدين الذي جاء به المسيح عليه السلام ، إنما هو الدين الذي نشره بولس في أرجاء الغرب ، وإن كان قد نسبه إلى المسيح !

استمع إلى المؤرخ الإنجليزي " ويلز " حين يقول :

" وظهر للوقت (أي في الوقت ذاته) معلم آخر عظيم ، يعده كثير من الثقات المعاصرين المؤسس الحقيقي للمسيحية ، وهو شاول الطرسوسي أو بولس .. والراجح أنه يهودي المولد ، وإن كان بعض الكتاب اليهود ينكرون ذلك . ولا مراء في أنه تعلم على أساتذة من اليهود ، بيد أنه كان متبحراً في لاهوتيات الإسكندرية الهيلينية .. وهو متأثر بطرائق التعبير الفلسفي للمدارس الهلينستية ، وبأساليب الرواقيين . كان صاحب نظرية دينية ومعلما يعلم الناس قبل أن يسمع بيسوع الناصري بزمن طويل .. ومن الراجح جدا أنه تأثر بالمثرائية ، إذ هو يستعمل عبارات عجيبة الشبه بالعبارات المثرائية .. ويتضح لكل من يقرأ رسائله المتنوعة جنبا إلى جنب مع الأناجيل أن ذهنه كان مشبعا بفكرة لا تظهر قط فيما نقل عن يسوع من أقوال وتعاليم ، ألا وهي فكرة الشخص الضحية الذي يقدم قربانا لله كفارة عن الخطيئة . فما بشر به يسوع كان ميلادا جديدا للروح الإنسانية ، أما ما علمه بولس فهو الديانة القديمة : ديانة الكاهن والمذبح ، وسفك الدماء لاسترضاء الإله " [7]

ويقول المؤرخ الإنجليزي " فشر " :

" إن حكمة الكنيسة المسيحية هدت آباءها الأولين إلى قبول ما لم يستطيعوا له منعاً من قديم العادات والتقاليد والمعتقدات ، بدليل استقبال الكنيسة لمبدأ تعدد الآلهة ، الراسخ بين شعوب البحر الأبيض المتوسط ، وتطويع ذلك المبدأ لما تقتضيه عقائدها " [8] !

ويقول " رينان " الفيلسوف الفرنسي :

" إنه ينبغي لفهم تعليم يسوع المسيح الحقيقي كما كان يفهمه هو أن نبحث في تلك التفاسير والشروح الكاذبة التي شوهت وجه التعليم المسيحي حتى أخفته عن الأبصار تحت طبقة كثيفة من الظلام . ويرجع بحثنا إلى أيام بولس الذي لم يفهم تعليم المسيح ، بل حمله على محمل آخر ، ثم مزجه بكثير من تقاليد الفريسيين وتعاليم العهد القديم . وبولس كما لا يخفى كان رسولا للأمم ، أو رسول الجدال والمنازعات الدينية ... وإن أولئك الشراح يدعون المسيح إلها دون أن يقيموا على ذلك الحجة . ويستندون في دعواهم على أقوال وردت في خمسة أسفار : موسى ،

7() ويلز ، " معالم تاريخ الإنسانية " ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، ج 3 ص 705 .

8() فشر ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، ج 1 ص 80 من الترجمة العربية .

والزبور ، وأعمال الرسل ، ورسائلهم ، وتآليف آباء الكنيسة . مع أن تلك الأقوال لا تدل أقل دلالة على أن المسيح هو الله " [9] .

ويقول " برنتون " :

" إن المسيحية الظافرة في مجمع نيقية – وهي العقيدة الرسمية في أعظم إمبراطورية في العالم – مخالفة كل المخالفة لمسيحية المسيحيين في الجليل [10] . ولو أن المرء اعتبر العهد الجديد التعبير النهائي عن العقيدة المسيحية ، لخرج من ذلك قطعا ، لا بأن مسيحية القرن الرابع تختلف عن المسيحية الأولى فحسب ، بل بأن مسيحية القرن الرابع لم تكن مسيحية بتاتا " ! [11] .

ولم يكن هذا هو التحريف الوحيد الذي حدث في رسالة المسيح عليه السلام .

إن كل دين منزل من عند الله – والنصرانية ليست بدعا من ذلك – كان عقيدة وشريعة وتعاليم ربانية لتنظيم الحياة في شتى مجالاتها .

ولكن النصرانية التي نشرها بولس في أرجاء أوربا كانت عقيدة بلا شريعة ، إلا ما كان متعلقا منها " بالأحوال الخاصة " من زواج وطلاق [12] وعلاقات أسرية . وبقي التشريع المهيمن على الحياة في ربوع الإمبراطورية الرومانية هو القانون الروماني ، لا قانون السماء ، بكل ما في القانون الروماني من رق وإقطاع وطبقية وحرمان للمرأة من الكرامة الإنسانية .

وقد يكون مفهوما أن تعجز الكنيسة في قرونها الثلاثة الأولى عن تطبيق الشريعة الربانية لكونها نشأت في ظل الإمبراطورية الرومانية الطاغية ، ولم يكن لها عليها سلطان ، بل كانت منبوذة مطاردة مضطهدة . أما أن يستمر عدم تطبيق الشريعة (إلا في ذلك المجال الضيق ، مجال الأحوال الشخصية) بعد أن سيطرت الكنيسة سيطرة كاملة على الدولة بعد دخول قسطنطين في النصرانية في القرن الرابع ، فأمر غير مفهوم – لنا على الأقل – إذ كان الأباطرة خاضعين تماما لنفوذ رجال الدين لا يملكون أن يعصوا لهم أمرا فيما بين القرن الرابع والقرن الثاني عشر على أقل تقدير ، ولو أمروا بتطبيق الشريعة لطبقوها !

وحين يخلو الدين من التشريع ، ويصبح عقيدة فحسب ، فإن علماءه وفقهاءه يتحولون إلى " رجال دين " أي إلى " كهنة " ، وسرعان ما يتحول الكهنة إلى وسطاء بين العبد والرب ، وتكون لهم قداسة ، ويكون لهم على قلوب الناس سلطان .. فيبدأ الطغيان !

وحدِّث عن طغيان الكنيسة الأوربية ولا حرج !

9() عن " محاضرات في النصرانية " للشيخ محمد أبو زهرة ، ص 215 . طبع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالرياض ، سنة 1404 هـ .

10() أي المسيحية الأولى كما جاء في كلام الكاتب بعد ذلك .

11() جرين برنتون ، في كتاب " أفكار ورجال " ترجمة محمود محمود ، ص 207 .

12() تحرم الكاثوليكية الطلاق ولكنها تبيح التفرقة الجسدية بين الزوجين في حالة " الخيانة الزوجية " .

لقد انتقل الطغيان من المجال الروحي – الذي بدأ منه نتيجة خلو الدين من الشريعة وتمثله في العقيدة وحدها وما يتعلق بها من الأخلاقيات – فشمل كل مجالات الحياة واحدا بعد الآخر ، فأضاف إلى الطغيان الروحي الذي يحتكر الوساطة بين العبد والرب ، طغيانا ماليا يشمل العشور والإتاوات والتركات وسخرة العمل الإجباري في حقول الكنيسة يوم الأحد مجانا بلا مقابل ! وطغيانا فكريا يحرّم على العقل أن يفكر لكي لا يزيغ عن " العقيدة ! " ، وطغيانا سياسيا يخضع الأباطرة لسيطرة البابوات وأهوائهم وشهواتهم ، وطغيانا علميا يقف في وجه النظريات العلمية ، ويحرّق العلماء أحياء لأنهم قالوا بكروية الأرض ، وبأن الأرض ليست مركز الكون !

وذلك كله بالإضافة إلى فضائح الأديرة وفساد رجال الدين ومهزلة صكوك الغفران ومحاكم التفتيش ووقوف الكنيسة ضد حركات الإصلاح ! (13)

* * *

ماذا كان يتوقع من الناس حين تصبح الأمور على هذا النحو ؟

ألم يكن منطقيا أن يتمرد الناس – بعضهم على الأقل – على هذا الدين ، وعلى الكنيسة ، أداة الطغيان الكبرى التي تذل الناس لسلطانها باسم الدين ؟!

بلى ! وقد وقع ذلك بالفعل ..

وخلال قرون متوالية احتدم الصراع بين رجال الدين وفئات متزايدة من المجتمع : العلماء و " المفكرين الأحرار " والأباطرة وغيرهم وغيرهم ، حتى حدث الانفجار المدوي في الثورة الفرنسية التي كان من بين شعاراتها : اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس ! وظهرت " العلمانية " على السطح ، بمعنى إبعاد نفوذ رجال الدين عن مجالات الحياة المختلفة بدءا بالسياسة ، ثم الاقتصاد ، ثم الفكر ، ثم العلم ، ثم الأدب والفن ، ثم الأخلاق !

* * *

من وجهة نظرنا الإسلامية نقول إن " العلمانية " كانت موجودة دائما في الحياة الأوربية من أول لحظة إلى آخر لحظة ! ولكن الكتاب الأوربيين لا يعتبرونها قامت إلا حين اقتصر نفوذ رجال الدين على عالم الروح والآخرة ، وتركوا " السلطة الزمنية " للأباطرة ، أي حين انقسمت السلطة التي كانت كلها – بشقيها – في يد " الحكومة الثيوقراطية " إلى سلطة روحية وسلطة زمنية منفصلتين ، يتولى كلا منهما فريق غير الفريق الآخر ، ولا يتدخل أيهما في شئون الآخر .

العلمانية قائمة – من وجهة نظرنا الإسلامية – منذ لم تطبق الشريعة الربانية ، أي منذ أول لحظة اعتنقت فيها أوربا النصرانية ، على الرغم من وجود " الحكومة الثيوقراطية " ، فقد كانت تلك الحكومة هي حكومة " رجال الدين " ولم تكن حكومة دينية ، ما دامت لا تطبق شريعة الدين .

13() اقرأ إن شئت فصل " الدين والكنيسة " من كتاب " مذاهب فكرية معاصرة " .

وبيان هذه الحقيقة مهم لتصحيح كثير من المفاهيم الخاطئة التي تطلق اسم الحكومة الثيوقراطية على الحكومة الإسلامية التي تطبق الشريعة الربانية لتنفر الناس من تطبيق الشريعة حين يتذكرون انحرافات " الحكومة الثيوقراطية " الأوربية ومظالمها ، وحجرها على العقول ، وجمودها ، وجهالتها ، وإفسادها لكل مجالات الحياة !

* * *

والآن فلنلخص قضية الدين والحياة في أوربا تلخيصا يلقي الضوء على موقف أوربا الحاضر من الدين .

إن هذا الدين في صورته الربانية التي أنزل بها كانت له مهمة معينة يؤديها في فترة معينة .

أما المهمة فكانت إصلاح أحوال بني إسرائيل المتدنية إلى أقصى درجات الانحطاط . وأما الفترة الزمنية فكانت ممتدة إلى وقت بعثة الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم بالدين الكامل الموجّه للبشرية كافة .

يقول تعالى في محكم آياته :

(إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ، وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ، قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ، وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ، وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِىءُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ، وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ ، إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) [14] .

كان بنو إسرائيل قد فسدت حياتهم بعبادة الذهب وأخذ الربا وقسوة القلب وتحريف الشريعة وارتكاب الآثام :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ) ؟ [15] .

14() سورة آل عمران [45 – 51] .
15() سورة الأعراف [169] .

(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ) [16] .

لهؤلاء أرسل المسيح عليه السلام بجرعة روحية هائلة ، لتعالج المادية المفرطة وقسوة القلب والتكالب على الحياة الدنيا ، وارتكاب الآثام والإفساد في الأرض .. فاتبعه من اتبعه من بني إسرائيل وكفر به منهم من كفر ، وهم الأكثرية كما توحي هذه الآيات الكريمة من كتاب الله :

(فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ، وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ، وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ، بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ، وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ، فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا ، وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) [17] .

ولكن الجرعة الروحية الضخمة التي تنزلت بها رسالة المسيح عليه السلام لمعالجة المادية الطاغية وقسوة القلب في بني إسرائيل ، حين حولت إلى " منهج حياة " للأمم تحولت إلى رهبانية هائلة ، زاهدة في الحياة الدنيا ، معرضة عن كل متاعها ، محقّرة لها ، منكرة لكل نشاط يبذل فيها !

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ..) [18] .

والله العليم الحكيم ، لم يكتب الرهبانية عليهم ولا على غيرهم ، لأنه يعلم سبحانه أنها لا تصلح منهجا للحياة ، ولا تحقق الغاية من خلق الإنسان ، الذي خلقه الله ليكون " خليفة " في الأرض ، ساعيا فيها ، معمرا لها ، مهيمنا على مجالاتها بما سخر الله للإنسان من طاقات السموات والأرض :

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [19] .

(هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) [20] .

16() سورة المائدة [13] .
17() سورة النساء [155 – 161] .
18() سورة الحديد [27] .
19() سورة البقرة [30] .
20() سورة هود [61] .

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ..) [21] .

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ) [22] .

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) [23] .

ومن أجل القيام بمهمة الخلافة ، وعمارة الأرض ، والسعي في مناكبها ، أودع الله الفطرة دوافع موّارة ، تدفع الإنسان دفعا إلى النشاط والحركة ، وجعلها عميقة في الفطرة :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) [24] .

وقال علماء التفسير إن هذه الدوافع إذا استخدمت فيما أحل الله فالتزيين من عند الله . إما إذا استخدمت في معصية الله فالتزيين من الشيطان . فهي ليست فاسدة في ذاتها ، بل هي مغروسة في الفطرة لحكمة يريدها الله ، لتكون عونا للإنسان للقيام بدوره في الحياة الدنيا ، ما دامت ملتزمة بحدود الله . والرسول صلى الله عليه وسلم يؤكد ذلك حين يقول للذين تركوا متاع الأرض إعراضا عنه ، فقال أحدهم : أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر ، وقال الثاني وأما أنا فأقوم الليل ولا أنام ، وقال الثالث : وأما أنا فلا أتزوج النساء . فقال عليه الصلاة : " ألا إني لأتقاكم لله ، ولكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتي فليس مني " [25] .

ولكن الذين تلقوا الدفعة الروحانية الغالبة – التي أنزلت لعلاج مادية اليهود وقسوة قلوبهم – فجعلوها منهج حياة لهم ، فإنهم من جهة عطلوا دفعة الحياة ، ومن جهة أخرى لم يستطيعوا الاستقامة بها فلم يرعوها حق رعايتها :

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ [26] فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) [27] .

والفسق الذي تشير إليه الآية الكريمة يملأ مجلدات ضخمة من تاريخ الكنيسة سجلت وصول الحالة الخلقية في الأديرة إلى درجة من الإسفاف

21() سورة الملك [15] .
22() سورة الجاثية [13] .
23() سورة الأعراف [32] .
24() سورة آل عمران [14] .
25() أخرجه الشيخان .
26() أي ما كتبنا عليهم إلا أن يبتغوا رضوان الله أو ما قبلناها منهم إلا لأنهم ابتغوا بها رضوان الله .
27() سورة الحديد [27] .

يتعفف عنها الشخص العادي ، سواء بين الرجال بعضهم وبعض ، أو بين النساء بعضهن وبعض ، أو في السراديب الخفية التي حفرت بين أديرة الرجال وأديرة النساء للاتصال المحرم بين الرهبان والراهبات !!

أما تعطيل دفعة الحياة فواضح فيما كان في العصور الوسطى المظلمة في أوربا من جهل وتأخر وانغلاق ..

* * *

ولم يقف السوء الذي أحدثه احتقار الحياة الدنيا وازدراؤها عند هذا الحد – وهو في ذاته مفسد – ولكنه تجاوز ذلك إلى " الإنسان " ذاته ، الراغب بطبعه في متاع الحياة الدنيا !

لقد كانت نظرة مسيحية القرون الوسطى إلى الإنسان أنه خاطئ بطبعه ، هابط بشهواته ، لا أمل في رفعه من هبوطه طالما هذه الشهوات مركبة في طبعه – إلا أن يكبتها ويجتثها من جذورها .

وامتزجت هذه النظرة – عقديا – بعدة أمور ، كلها خطير ، وإن كانت خطورتها لم تتبد لأصحابها في حينها !

فمن ناحية امتزج تقديس الرب وتعظيمه في حسهم بتحقير الإنسان في المقابل ! كأنما الألوهية والعبودية طرفان في معادلة ، لا يرتفع أحدهما إلا بإسقاط الآخر . [28]

ومن ناحية ثانية لم يعد الأمل في " الخلاص " ممكنا عن طريق " الأعمال " التي يقوم بها الإنسان ، ما دام خاطئا بطبعه ، ولا سبيل إلى تنقيته وترقيته طالما جرثومة الخطيئة في دمائه . إنما يجيء الخلاص من " الاعتقاد " في الرب المخلص يسوع ، الذي إذا آمن به الإنسان ربا ومخلّصاً تغفر له خطاياه .

ومن ناحية ثالثة انصرف اهتمامهم عن تحقيق " ملكوت الرب " في الحياة الدنيا على اعتبار أن هذا عمل ميئوس منه ، إنما يتحقق ملكوت الرب في الآخرة وحدها ، كما أشار ولفرد كانتول سميث في مقدمة كتابه " الإسلام في التاريخ الحديث Islam in Modern History " وهو يعقد موازنة بين رؤية المسلم ورؤية المسيحي للتاريخ ، إذ يقول : إن المسلم يرى أن تحقيق ملكوت الرب يكون بإطاعة شريعته وتطبيقها في الحياة الدنيا ، ولهذا يسعى أن يجعل سلوك الفرد وسلوك المجتمع مطابقا للشريعة ، ويرى أن النجاح في الحياة الدنيا لا يتأتى إلا بتحقيق " ملكوت الرب " في هذه الحياة . بينما يشعر المسيحي أن مهمة تقويم المجتمع أمر خارج عن اختصاصه ! إنما هو يسعى إلى الخلاص الفردي ، كل فرد بمفرده . كما أن صورة المجتمع ، ونجاحه أو فشله أمر خارج عن نطاق العقيدة ! بل إن كثيرا من المسيحيين الأتقياء ينظرون إلى النجاح في الحياة الدنيا على أنه فتنة تصرف الإنسان عن طريق الخلاص ، وأن الابتهاج بالنجاح الدنيوي خطيئة يجب أن يتخلص منها الإنسان ولا يسمح لها بأن تتملكه !

28() وسنرى خطورة هذه النظرة حين حدث " الانقلاب " الأوربي ، فمجّد الإنسان وأسقط الإله !!

لذلك انحصرت فكرة الخلاص في التوجه إلى الآخرة عن طريق الإيمان بيسوع المسيح ربا ومخلّصاً – مع إهمال الحياة الدنيا يأسا من إصلاحها إضافة إلى الزهد فيها – فتحول الدين بذلك إلى دين أخروي ، لا يلتفت إلى الحياة الدنيا ولا يسعى لإصلاح أحوالها ، وإقامة العدل فيها ، والجهاد من أجل ترسيخ هذه القيم وتمكينها ، مع الرضى في الوقت ذاته بالألم والشقاء في الحياة الدنيا طمعا في الوصول إلى الملكوت !

ولا ننسى أن الكنيسة قد استخدمت هذه الروح – التي تأصلت عندهم تأصلا عقديا – في مقاومة حركات الإصلاح حين جاء أوانها في أوربا ، وتخذيل الناس عن الثورة على الظلم الواقع عليهم ، بدعوى أن الرضى بالظلم والألم والشقاء هو الذي يؤهل الناس لنيل الملكوت في الآخرة ! مما جعل ماركس يقول قولته المشهورة : " الدين أفيون الشعوب " . وهي قولة صادقة على دين الكنيسة الأوربية في العصور الوسطى ، حيث كانت الكنيسة تخدر الجماهير بالدين لكيلا يثوروا على الإقطاع . وكان هذا منها دفاعا عن وجودها الذاتي في الواقع ، إذ كانت الكنيسة منذ زمن قد أصبحت من ذوات الإقطاع ، فلم يكن يعقل أن تشجع الناس على الثورة على الإقطاع !

* * *

ومن جهة أخرى آمنت الكنيسة بتصور خاطئ للحياة البشرية ، بثته في نفوس أتباعها ، وعمقته في إحساسهم ، مبني على فكرة الثبات المطلق في كل شيء . فقد وضع الإله نظاما ثابتا للكون المادي بشمسه وأرضه ونجومه وسمواته ، ونظاما ثابتا للحياة البشرية كذلك . وكما أن الأفلاك منتظمة في حركتها على نظام ثابت لا يتغير ، فكذلك الحياة البشرية ينبغي أن تجري على نظام ثابت لا يتغير – لأنه من إرادة الله الثابتة – وهو نظام يقسم الناس إلى طبقتين رئيسيتين : رجال الدين ورجال الإقطاع والملوك والأباطرة من جانب ، والشعب من جانب آخر . الطبقة الأولى تستمتع بالغنى والسلطان وملذات الحياة الدنيا ، والطبقة الثانية تقوم بالخدمات المطلوبة لهؤلاء ، وتعيش عيشة الكفاف ، وتكدح ليلها ونهارها ، وليس لها من متاع الحياة الدنيا شيء يذكر ، ولكن ينتظرها نعيم الآخرة ، ما دامت تؤمن بالمخلّص ، وتصبر على الابتلاء .

وكان لذلك التصور أثره – ولا شك – في الجمود الذي اتسمت به الحياة الأوربية في عصورها الوسطى المظلمة !

* * *

ولكن الطامة الكبرى كانت مصادمة العلم بالدين ، وتحريق العلماء أحياء لأنهم قالوا بكروية الأرض ، وبأن الأرض ليست مركز الكون ! لقد كانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير !

فإذا كان من حق الكنيسة – من حيث المبدأ – أن توجه سلوكيات الناس وأخلاقياتهم وعقائدهم ، وأن تحدد للناس حلالهم وحرامهم [29] ، فلم

29() استخدمت الكنيسة هذا الحق استخداما خاطئا فأباحت الخمر والخنزير وهما مما حرم الله ، وحرمت الختان وهو مما أوجبه الله !

يكن من المستساغ – لا من حيث المبدأ ولا من حيث الواقع – أن تتدخل في النظريات العلمية فتخطّئها أو تصوّبها باسم الدين .

أما من حيث المبدأ فإن التوراة والأناجيل التي اعتمدت عليها الكنيسة – حتى على فرض صحتها وعدم تحريفها – هي كتب للهداية وليست كتبا للنظريات العلمية . فقد ترك الله مجال العلم للعقل البشري بعد أن أمده بالحواس المعينة له ، وبالقدرة على الملاحظة والتجريب والقياس والاستنباط . وإنما اختص الوحي بما لا يستطيع الإنسان من ذات نفسه أن يصل فيه إلى اليقين ، بينما هو في حاجة إلى المعرفة اليقينية بشأنه لتستقيم حياته في الدنيا والآخرة ، كتوحيد الله سبحانه وتعالى ، وخبر البعث والمعاد والحساب والجزاء ، ومعرفة الحلال والحرام ، والمعايير التي ينبغي أن تحكم الحياة ..

وأما من حيث الواقع فإن رجال الدين ما كانوا رجال علم ، ولا زعموا لأنفسهم أنهم تمرسوا بالعلوم ، بل كان كثير منهم – باعتراف كتابهم ومؤرخيهم – يعتبرون في عداد الجهلاء !

لذلك كان تعرض الكنيسة للنظريات العلمية باسم الدين أمرا في غاية الغرابة ، كما كان تعقبها للعلماء بالحرق والتهديد به أمرا في غاية الفظاظة والوحشية ، ومنذرا بعواقب وخيمة لا يقف شرها عند حد !

يقولون في كتاباتهم إن الكنيسة وقفت هذا الموقف من العلم والعلماء لأن نفوذها كان قائما على الخرافة ، وأنها خشيت لو انتشر العلم وقوّض الخرافة أن يتقوض سلطانها على قلوب الناس .

وهذا حق .. ولكنه يخفون – عن عمد – حقيقة أخرى ذات أهمية خاصة ، هي أن العلوم التي اعتنقها العلماء ونادوا بها كانت في أصولها **علوما إسلامية** ، تعلمها علماؤهم حين تتلمذوا على كتب العلوم الإسلامية . وقد كانت تعني في نظر الكنيسة غزوا فكريا إسلاميا يهدد كيانها ، وسيطرتها على الناس . لذلك كانت حربها لها حربا صليبية في حقيقتها ، لمقاومة الخطر الإسلامي الزاحف على أوربا من الشرق والغرب والجنوب !

لقد كان التأثير الإسلامي – الثقافي والحضاري – تأثيرا كاسحا في وقت من الأوقات .

يقول المؤرخ البريطاني " ويلز " : " ولو تهيأ لرجل ذي بصيرة نافذة أن ينظر إلى العالم في مفتتح القرن السادس عشر ، فلعله كان يستنتج أنه لن تمضي إلا بضعة أجيال قليلة لا يلبث بعدها العالم أجمع أن يصبح مغوليا ، وربما أصبح إسلاميا " [30] .

ويقول بريفولت في كتاب " بناء الإنسانية Making of Humanity " : " فالعالم القديم – كما رأينا – لم يكن للعلم فيه وجود . وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم ، وأخذوها عن سواهم ، ولم تتأقلم في يوم من الأيام فتمتزج امتزاجا كليا

30() ويلز ، معالم تاريخ الإنسانية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ج 3 ص 966 .

بالثقافة اليونانية . وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات . ولكن أساليب البحث في دأب وأناة ، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها ، والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقة المستمرة ، والبحث التجريبي ، كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليوناني . أما ما ندعوه " العلم " فقد ظهر في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة ، من طرق التجربة والملاحظة والقياس ، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان .. وهذه الروح ، وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوربي " [31]

" ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد أوربا إلى الحياة ، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية " [32]

ويقول " ليوبولد فايس " (محمد أسد) في كتابه " الإسلام على مفترق الطرق " : " في ذلك الحين (يقصد في العصور الوسطى) أخذ النفوذ الإسلامي في العالم – في بادئ الأمر بمغادرة الصليبيين إلى الشرق ، وبالجامعات الإسلامية الزاهرة في أسبانيا المسلمة في الغرب ، ثم بالصلات التجارية المتزايدة التي أنشأتها جمهوريتا جنوة والبندقية – أخذ هذا النفوذ يقرع الأبواب الموصدة دون المدنية العربية ... ولكن الذي صعنه العرب كان أكثر من بعث علوم اليونان القديمة .. لقد خلقوا لأنفسهم عالما علميا جديدا تمام الجدة .. لقد وجدوا طرائق جديدة للبحث وعملوا على تحسينها . ثم حملوا هذا كله بوسائط مختلفة إلى الغرب . ولسنا نبالغ إذا قلنا إن العصر العلمي الحديث الذي نعيش فيه لم يدشن في مدن أوربا النصرانية ، ولكن في المراكز الإسلامية : في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة " [33] .

ويقول " الفارو القرطبي " وهو يتحسر على شباب أهل بلده من النصارى لأنهم أهملوا لغة قومهم وكتب دينهم ، وشغفوا بالكتب العربية : " يطرب إخواني المسيحيون بأشعار العرب وقصصهم . فهم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة المحمديين لا لتفنيدها ، بل للحصول على أسلوب صحيح رشيق .. واأسفاه ! إن شباب المسيحيين الذين هم أبرز الناس مواهب ليسوا على علم بأي أدب ولا أي لغة غير العربية . فهم يقرءون كتب العرب ويدرسونها بلهفة وشغف ، ويجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهظة ، وإنهم ليترنمون في كل مكان بمدح تراث العرب . وإنك لتراهم من الناحية الأخرى يحتجون في زراية إذا ذكرت الكتب المسيحية بأن تلك المؤلفات غير جديرة بالتفاتهم .. " [34] .

وحين احتك الأوربيون بالمسلمين – احتكاكا حربيا في الحروب الصليبية ، واحتكاكا تجاريا عن طريق جنوة والبندقية ، واحتكاكا ثقافيا

31() عن كتاب " تجديد الفكر الديني " لمحمد إقبال ، ترجمة عباس محمود ، ص 250 من الترجمة العربية .

32() المصدر السابق ص 149 .

33() ص 39 – 40 من الترجمة العربية ، لعمر فروخ .

34() عن الترجمة العربية لكتاب " حضارة الإسلام " لجرونيباوم نشر مشروع الألف كتاب ص 81 – 82 .

وحضاريا في الأندلس والشمال الأفريقي وجنوب إيطاليا وصقلية الإسلامية – حدث تحول هائل في الحياة الأوربية .

لقد وجدت أوربا نمطا من الحياة يختلف تماما عن النمط الذي عاشت به طوال قرونها الوسطى المظلمة .

وجدت دينا بلا كنيسة ولا رجال دين ! دينا يمارسه الناس في علاقة مباشرة بين العبد والرب لا يدخل فيها كاهن ولا قسيس .

ووجدت فكرا واسع الآفاق متعدد الجوانب ، لا حجر فيه على العقل البشري ، ولا رقيب فيه على الناس إلا ضمائرهم ولا محاكم تفتيش تقتحم ضمائر الناس لتفتش عن المخبوء فيها لتقذف به وبحامله إلى النار !

ووجدوا علاقات اجتماعية ليس فيها إقطاع ، وليس فيها عبيد يسامون الخسف والذل والهوان [35] .

ووجدوا شريعة موحدة يتحاكم إليها الناس كلهم سواسية ، لا تخضع لهوى أمير الإقطاعية الذي تتمثل فيه السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية كلها في آن !

ووجدوا علما هائلا في كل أبواب المعرفة المتاحة يومئذ ، وحضارة مشرقة وطيدة الأركان .

وهذا كله على الرغم مما كان قد طرأ على المسلمين من انحرافات خلال قرون من الزمان !

ولم يكن لأوربا بدٌّ من أن تتأثر بهذا كله تأثرا يغير حياتها من الأساس . وكان يمكن – كما قال ويلز – أن تدخل أوربا في الإسلام ..

وكانت الكنيسة أول من استشعر هذا الخطر " الداهم ! " الذي يشكل بالنسبة لها تهديدا مباشرا لكيانها وسلطانها ، ولدينها كذلك ! فوقفت بعنف تذود عن نفسها ، وتصد المد الإسلامي عن أوربا بكل ما تملك من سلطان .

واتخذت الكنيسة وسيلتين أساسيتين لوقف المد الإسلامي : الأولى محاكم التفتيش بكل ما تشتمل عليه من وسائل التعذيب الوحشي ، والثانية أنها كلفت كتابها وشعراءها أن يشنوا حملة شعواء على الإسلام يشوهون فيها صورته في نفوس الأوربيين ، ويلصقون به وبأهله أبشع التهم التي تدعو إلى النفور منه والشعور بالبغضاء نحوه .. [36] .

وعلى الرغم من ذلك كله فقد كان الإسلام هو الذي أخرج أوربا من ظلمات القرون الوسطى لتبدأ " نهضتها " ، وإن كانت بسبب التشويه الذي تبنته الكنيسة لم تدخل في الإسلام .

35() كان في العالم الإسلامي رق . ولكن الإسلام كان قد جفف كل منابع الرق التي كانت قائمة قبله ، فيما عدا بابا واحدا هو رق الحرب التي تقع بين المسلمين والكفار . ولكن ذلك الرقيق كان يعامل معاملة إنسانية وتفتح أمامه كل السبل لتحريره .

36() تجدر الإشارة إلى أن حصيلة هذه الحملة هي ذاتها التي استخدمها المنصرون والمستشرقون فيما بعد لمحاولة إبعاد المسلمين عن الإسلام وتنفيرهم منه !

استفادت أوربا كثيرا من الحركة العلمية الإسلامية ، ومن الحضارة الإسلامية المتعددة الجوانب . ولكنها وجدت جداراً ضخما يحول بينها وبين الإسلام . وعندئذ وقعت في المأزق الذي لم تنج من آثاره حتى اليوم . فلا هي كانت مقتنعة بدينها الذي شوهته الكنيسة وأفسدت مسيرته ، ولا هي دخلت في الدين الصحيح الذي كان قميناً أن يهديها إلى النور الحقيقي الذي أنزله الله لها ، وللبشرية جمعاء :

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [37] .

وقد كان مخرجها من مأزقها ذلك أنها رجعت إلى تراثها الوثني الذي عاشته قبل دخولها في دين الكنيسة ، أعني التراث الروماني الإغريقي ، لتستمد منه مقومات نهضتها ، وتبتعد في الوقت ذاته عن " الدين " .. وكان هذا هو البلاء الذي لم يصبها وحدها ، ولكنه أصاب العالم كله معها ، حين ملكت من وسائل القوة والتمكين ما مكنها من السيطرة على عالم اليوم .

إن هذا التراث يحمل في طياته فكرة خبيثة عن العلاقة بين البشر و " الآلهة " .. علاقة صراع دائم لا مودة فيه ولا هوادة ولا تعاطف .. الإنسان من جانبه في محاولة دائبة لإثبات ذاته يتحدى " الآلهة " وعصيانها والتمرد عليها ، و " الآلهة " من جانبها في محاولة دائبة لتحطيم الإنسان وإذلاله كلما أراد أن يثبت ذاته .. وتلك هي مأساة الحياة !

ولعل أوضح مثال على هذه العلاقة هو أسطورة بروميثيوس سارق النار المقدسة . وهي أسطورة تأخذ شيئا من الواقع ، وتلونه بلونها الخاص .

تقول الأسطورة إن زيوس – إله الآلهة – خلق الإنسان من قبضة من طين الأرض ، ثم سواه على النار المقدسة (التي ترمز في الأسطورة إلى المعرفة) ثم أهبطه إلى الأرض وحيدا في الظلام ! (يرمز الظلام إلى الجهل) فأشفق عليه كائن أسطوري يسمى بروميثيوس (لعله يرمز إلى الشيطان) فسرق له النار المقدسة من الإله (والرمز هنا أن الإنسان قد أخذ يتعلم) فغضب الإله على الإنسان والشيطان كليهما ! فأما الشيطان (بروميثيوس) فقد وكل به نسرا يأكل كبده طوال النهار ، وفي الليل تنبت له كبد جديدة فيجيء النسر في الصباح فيرعى كبده إلى الليل ، هكذا في عذاب دائم . وأما الإنسان فقد خلق له كائنا أنثى (ترمز إلى حواء) وأرسلها إليه في ظاهر الأمر لتؤنسه ، ولكنه أرسل معها صندوقا هدية ، فلما فتحه إذا هو مملوء بالشرور ! فتناثرت الشرور من الصندوق وملأت أرجاء الأرض ! وكان هذا هو الانتقام الإلهي من الإنسان الذي أخذ يتعلم !

[37] سورة المائدة [15 – 16] .

ودعك الآن من الجانب " الفني " في الأسطورة ، وانظر إلى المضمون . إن تلك الأسطورة تعني – من بين ما تعنيه – أن العلم لا يأتي هبة من عند الله المنعم الوهاب ، وإنما اغتصابا يغتصبه الإنسان من الإله كرها عنه ! ثم إن الإله يغار من كون الإنسان قد تعلم ! وفي الوقت ذاته هو عاجز عن سلب العلم منه ! فينتقم منه بالتنكيد الدائم عليه ، لكي لا ينعم بثمار المعرفة التي اغتصبها اغتصابا من الإله !

وفي هذا الجو الملبد بمشاعر الحقد والصراع ولدت " النهضة " الأوربية .. ولدت نافرة من الدين ، متملصة منه ، نابذة إياه .. واجتمع لها رافدان من الحقد في آن واحد : الحقد على الكنيسة بسبب ما ارتكبت من آثام ، والحقد الذي يحمله التراث الوثني الذي اعتمدته أوربا زاداً تستمد منه مقومات نهضتها .

وفي ذلك الجو كذلك ولدت العلوم الاجتماعية في أوربا ، ثم نمت وترعرعت حتى آتت ثمارها الحاضرة !

* * *

لقد انقلبت أوربا في " نهضتها " مائة وثمانين درجة كاملة ، لتنتقم من الكنيسة ، ومن الدين الذي أذلت به الكنيسة رقاب العباد ..

انقلبت من دين يؤمن بالغيب [38] ويكاد يهمل عالم الشهادة ، إلى " دين " يصب اهتمامه في عالم الشهادة ويهمل عالم الغيب !

من دين أخروي يهمل الحياة الدنيا إلى " دين " دنيوي يهمل الآخرة !

من دين يمجّد الله ويسقط الإنسان من الحساب إلى " دين " يمجّد الإنسان ويسقط الإله من الحساب !

من دين رهباني يزدري الجسد ولذائذه الحسية إلى " دين " غارق في لذائذ الحس إلى درجة الحيوانية !

من دين يحارب العلم إلى علم يحارب الدين ، ومن دين يحارب الحضارة إلى حضارة تحارب الدين !

من دين يتصور " الثبات " في كل شيء ويرفض التطور ، إلى " دين " يتصور التطور في كل شيء ويرفض الثبات في أي شيء !

من دين يحجر على العقل أن يفكر إلى " دين " يؤله العقل ، ويجعله هو المحكم في الأمور كلها ، وأولها الدين ! .

من دين يحتقر المرأة ولا يعترف بكيانها الإنساني إلى " دين " ترفض به المرأة أن يتدخل الدين في شيء من أمورها على الإطلاق !

انقلاب كامل من أقصى الطرف إلى أقصى الطرف المقابل ، لا يتوقف عند نقطة الوسط المتوازن ، ولا يعرف الاتزان !

* * *

ثم زاد الطينُ بلةً بالداروينية !

38() الذي يسمونه في لغتهم الميتافيزيقا (أي ما وراء الطبيعة ، أو ما وراء العالم المحسوس) .

لقد ركزت الداروينية على أمور بعينها هي التي زادت الطين بلة !

فقد نفت بادئ بدء صفة الخلق عن الخالق سبحانه وتعالى ، ونسبتها إلى الطبيعة . فقال دارون : " الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق :

Nature creates everything and there is no limit to its creativity .

ونفت الغاية من الخلق . فالإله الجديد – الطبيعة – يخبط خبط عشواء .

Nature works haphazardly .

وأخيرا ركزت على حيوانية الإنسان وماديته . فهو لم يخلق إنسانا من أول لحظة ، إنما هو نهاية تطور السلسلة الحيوانية ، تسبقه حلقة مفقودة ، ويسبق الحلقة المفقودة واحد من القردة العليا الأربعة : الشمبانزي والغوريللا والجيبون والأورانج أوتانج (الذي يسمى إنسان الغاب ولكنه ليس هو الجد الأعلى للإنسان !) والبيئة المادية هي التي تدفع الكائنات إلى التطور الدائم ، الذي انتهى بالإنسان ..

وبذلك أضيف رافد ثالث للبعد عن الدين ، ونبذه ، والتفلت منه في الحياة الأوربية المعاصرة ، لا يقل أثرا – إن لم يزد – عن موقف العداء مع الكنيسة ، وتأثير التراث الوثني الإغريقي !

وبالنسبة للعلوم الاجتماعية بالذات كان هذا الرافد الأخير أخطر الروافد جميعا ، وأشدها في التأثير !

إن الموضوع الأساسي للعلوم الاجتماعية كلها هو " الإنسان " . وبحسب تصورنا للإنسان يكون مسيرنا في هذه العلوم . فإذا كان تصورنا للإنسان أنه حيوان متطور ، وأن خالقه لا غاية له من خلقه ، فأين مكان " القيم " يا ترى في هذا الكيان الحيواني الذي برز إلى الوجود بغير هدف معين لدى الخالق الذي أوجده ؟ وما " المعايير " التي تحكم حياته ؟ وما المقاييس التي نرجع إليها لنحكم على أي إنجاز من إنجازاته ؟ وما الذي يوصف من أعماله بأنه خير ، وما الذي يوصف بأنه شر ؟ أم إنه لا خير ولا شر ، والكل في الميزان سواء ؟!

قضايا خطيرة في الحقيقة .. لا نلتفت إليها حين نتلقى علمنا في العلوم الاجتماعية من الغرب ، بينما هي مفرق طريق بيننا وبينهم : في التصور ، وفي طريقة التناول ، وفي النتائج المستخلصة ، حتى لو التقى فكرنا وفكرهم في بعض الجزئيات أو في كثير من الجزئيات ! فالجزئية وحدها لا تعطي التصور . إنما التصور المبدئي هو الذي يفسر الجزئية ويضعها في مكانها من الصورة الكلية المتكاملة .

ولقد تأثرنا – دون أن ننتبه لتأثرنا – بقولهم : إن هذه العلوم قد تخلصت من النظرة الذاتية أو المواقف الذاتية ، وأصبحت علوما موضوعية تجريبية قياسية ، يجب التسليم بنتائجها دون تردد ، كما نسلم بالنتائج التي نحصل عليها في الفيزياء أو الكيمياء أو علم وظائف الأعضاء !

ولا نريد أن نقول إن علم الفيزياء – منذ انساح الحاجز بين المادة والطاقة – قد دخل في متاهة عظيمة لم يخرج منها بعد .. ولا أن أسرار الذرة وأسرار النواة التي تتحكم في العمليات الكيميائية ليست كلها في حيز معلوماتنا ، وقد يكون المجهول منها أكثر من المعلوم .. ولا أن في الجسم البشري وفي وظائف أعضائه من الأسرار العجيبة ما يثير ذهول العلماء وهم يكشفون منه مجهولا بعد مجهول ..

إنما نقول إن النفس البشرية ليست كالمادة الجامدة ، وليست كالنبات أو الحيوان .. وإن معايير المادة ومعايير النبات ومعايير الحيوان لا تصلح ابتداء للحكم على تصرفات الإنسان ، ولا تستطيع تفسير حياته .

ثم نقول بعد ذلك إن دعوى الموضوعية في العلوم الاجتماعية التي يقدمها لنا الغرب دعوى داحضة ، ما دامت تستمد أساسا من التفسير الدارويني للإنسان ، وتلوّن بهذا التفسير كل التجارب وكل الأبحاث ، وتؤثر لا محالة في النتائج الأخيرة المستخلصة من الأبحاث !

ويكفي هذا لاستشعار الحاجة الملحة إلى التأصيل الإسلامي لتلك العلوم .

أحوال الأمة الإسلامية

إذا أمعنا النظر في أحوال أوربا فسنجد أن الفساد الأول في حياتها قد نجم ابتداء من المفاهيم الدينية الخاطئة التي اعتنقتها بدلا من الدين الصحيح . فهي مفاهيم محرفة ترتب عليها كما بينا في الفصل السابق ألوان كثيرة من الشر ، أدت بأوربا في النهاية إلى النفور من ذلك الدين ونبذه والتمرد عليه . ولقد كان التمسك بتلك المفاهيم الخاطئة في عصر أوربا الوسطى هو السبب الرئيسي فيما اتسمت به تلك العصور من الظلام ، لأنها – كما ألمحنا – حولت الدين إلى دين أخروي يهمل الحياة الدنيا ، يمجد الله ولكنه يحقّر الإنسان ، ويكبت دوافعه الفطرية ، ويزين له الرضى بالفقر والظلم والشقاء في الحياة الدنيا طمعا في نعيم الآخرة ، ويرفض الحركة التي تؤدي إلى عمارة الأرض وتنمية الحياة وترقيتها ويحارب العلم وينشر الخرافة والتصورات الخاطئة عن الكون والحياة والإنسان .

وليس العجب أن أوربا ثارت على الدين وكنيسته آخر الأمر ، إنما العجب أنها عاشت في ظله كل تلك القرون التي عاشتها ، غير شاعرة بما يحيطها من الظلام والظلم ، والجهالة والانغلاق ..

والحقيقة إن إحساس أوربا بما هي فيه ، ورغبتها في التخلص منه وتغييره ما بدأ إلا بعد احتكاكها بالإسلام والمسلمين ، من خلال القنوات المتعددة التي أَطْلَعَتْ أوربا على الإسلام : الحروب الصليبية ، والصلات التجارية ، والابتعاث إلى الجامعات الإسلامية ، وترجمة العلوم الإسلامية إلى اللغات الأوربية ..

ولكن موقف الكنيسة من المد الإسلامي الزاحف إلى أوربا من الشرق والغرب والجنوب ، كان هو السبب الرئيسي في الفساد الثاني الذي عاشته أوربا منذ " النهضة " إلى اللحظة الحاضرة ، على الرغم من كل التقدم العلمي والتكنولوجي والقوة المادية والحربية والسياسية والاقتصادية التي يملكها الغرب في وقته الحاضر . فقد أدى موقف الكنيسة بأوربا إلى الخروج من دينها ، وعدم الدخول في الوقت ذاته في الإسلام ، وانتشار المذاهب الفكرية والاجتماعية الكارهة للدين ، الراغبة في حصره في أضيق نطاق ممكن – إذا سمحت له بالوجود أصلا – وإبعاده عن مجالات البحث العلمي ، وعن السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر والفن .. والأخلاق !

* * *

إذا اتضح لنا ذلك من ظروف أوربا فقد اتضح لنا – أو يجب أن يتضح لنا – أن طريقنا غير طريقهم ، لأن ظروفنا كلها غير ظروفهم ..

أول فارق بين ظروفنا وظروفهم هو اختلاف الدين .. فبينما اعتنقت أوربا دين بولس بدلا من الدين السماوي ، فإن الأمة الإسلامية قد اعتنقت الدين السماوي الحقيقي المنزل من عند الله ، الذي هو دين الحق من

ناحية ، والدين المنزل للبشرية كافة من ناحية أخرى ـ والمنزل للزمن كله من مبعثه صلى الله عليه وسلم إلى آخر الزمان من ناحية ثالثة :

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً) [39] .

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ [40] **)** [41] .

ولننظر نظرة سريعة في خصائص الدين الإسلامي من جهة ، ومسيرة الأمة الإسلامية به من جهة أخرى ، لنرى الفارق بين المسيرتين .

ولنركز في نظرتنا السريعة على الجوانب التي يتقابل فيها موقف الدينين من قضايا الحياة الكبرى ، لنتبين فيما بعد أثر ذلك التقابل في المسيرة التاريخية لكل من الأمتين .

كان الدين الذي اعتنقته أوربا دينا أخرويا يهمل الحياة الدنيا ، وكان رد الفعل " النهوضي " عندهم هو الاهتمام الزائد بالحياة الدنيا وإهمال الآخرة ، فما موقف الإسلام في هذه القضية ؟

الإسلام هو نقطة الوسط المتوازن بين النقيضين المتطرفين :

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) [42] .

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) [43] .

ليست الدنيا نقيضا مقابلا للآخرة ، ولا الآخرة نقيضا مقابلا للدنيا ، وليس العمل لإحداهما صارفا عن العمل للأخرى . إنما يعمل الإنسان بجهد كله ، ونشاطه كله ، ودوافعه كلها لعمارة الأرض ، وحين يعمر الأرض بمقتضى المنهج الرباني يكون قد عمل للآخرة في ذات الوقت دون أن يحتاج لأن يحيد عن طريقه أو يعطل طاقة من طاقاته ، أو يهمل واجبا من واجباته . ومن ثم لا تتنازع الدنيا والآخرة في حسه ، ولا تتمزق بينهما نفسه ، ولا تتشتت اتجاهاته .

* * *

وكان الدين الذي اعتنقته أوربا غارقا في " الميتافيزيقا " ، أي الاهتمام بعالم الغيب ، مهملا لعالم الشهادة ، ثم كان رد الفعل " النهضوي " عندهم هو إهمال " الميتافيزيقا " ووصمها بأنها خرافة ، والاهتمام الزائد بعالم الشهادة . فما موقف الإسلام في هذه القضية ؟

الإسلام هو نقطة الوسط المتوازن بين النقيضين المتطرفين :

39() سورة المائدة [3] .
40() أي القرآن .
41() سورة المائدة [68] .
42() سورة القصص [77] .
43() سورة الملك [15] .

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِـي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) [44] .

إن الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ليس نقيضا مقابلا للإيمان بالمحسوس ، والتعامل معه تعاملا حسيا ماديا عقلانيا ، واستخلاص طاقات السموات والأرض ، واستخدامها في عمارة الأرض . ففي تركيب النفس الإنسانية كما فطرها الله تتجاور النزعتان معاً وتتآلفان وتتناسقان ، نزعة الإيمان بما تدركه الحواس ، والإيمان بما لا تدركه الحواس .. وتلك مزية ميز الخالق بها الإنسان عن الكائنات الأخرى ، وجعلها في مقدمة خصائصه :

(الم ، ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ..) [45] .

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [46] .

الحواس تتعامل مع الكون المادي – مع عالم الشهادة – تعاملا كاملا يشمل السمع والبصر (وما يؤديان إليه من ملاحظة وقياس واستنباط وتجربة وتعلم واختراع واستغلال) والأفئدة تتعامل مع عالم الغيب ، فتؤمن بالله ، وتتلقى عنه ، وتعمل بمقتضى وحيه ، وتؤمن بأنبيائه ، وتؤمن باليوم الآخر وما فيه من بعث ونشور وحساب وجزاء ، بلا تعارض ، ولا تنازع ولا شتات ..

* * *

وكان الدين الذي اعتنقته أوربا دينا يمجد الله ويحقّر الإنسان ، ثم كان رد الفعل " النهوضي " عندهم هو تمجيد الإنسان بدلا من الله . فما موقف الإسلام في هذه القضية ؟

الإسلام هو نقطة الوسط المتوازن بين النقيضين المتطرفين :

فالله تقدست أسماؤه هو الممجّد في السموات وفي الأرض ، وهو الفعال لما يريد :

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ، ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ، فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) [47] .

والإنسان في الوقت ذاته مكرم بتكريم الله :

44() سورة البقرة [177] .
45() سورة البقرة [1 – 3] .
46() سورة النحل [78] .
47() سورة البروج [14 – 16] .

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) [48] .

إن تمجيد الله سبحانه وتعالى ليس نقيضا مقابلا لتكريم الإنسان . وتكريم الإنسان كذلك ليس نقيضا مقابلا لتمجيد الله . إنهما ليسا ندين متصارعين كما تصور الأسطورة الوثنية الإغريقية ، بحيث يكون ارتفاع أحدهما هبوطا للآخر ! الله في علاه ، هو الحميد المجيد ، هو القوي القاهر ، هو العزيز الحكيم ، هو الخلاق الرزاق ذو القوة المتين ، والإنسان هو العبد الخاضع لجبروته المتطلع لرحمته ، ولكنه في عبوديته مكرم ، لأن الخالق كرّمه ، ووهبه من فضله ، وعلّمه ورشّده ، وهداه النجدين . ومِنْ أكرم ما كرمه به أنه لم يقهره على الإيمان كما قهر بقية الكائنات ، إنما وهب له عقلا يميز به ، وإرادة فاعلة يختار بها بين طريقين :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) [49] .

الإنسان ليس إلها ، ولا ينبغي له أن يكون ، ولكنه ليس هملا ، وليس كائنا سلبيا مهينا محقرا لكونه ليس إلها ! والكون الذي خلقه الله يتسع لألوهية الله ولعبودية العباد كلٌّ في مقامه ، بلا تناقض ولا صدام !

وحقيقة إن الإنسان قاصر . وإنه ضعيف . وإنه خطاء . وإنه لا حول له ولا قوة إلا بالله . ولكن هذا كله لا يمنع عنه الكرامة التي كرمه بها الله ، والرفعة التي كتبها له الله ، إنما الذي يزيل عنه الكرامة ويهبط به أسفل سافلين أن يدعي الألوهية ، ويجعل نفسه ندا لله ، أو يتخذ أندادا من دون الله ، أو يخلد إلى الأرض ويتبع هواه . عندئذ فقط يسقط في الحضيض ، وتحق عليه اللعنة من الله . أما حين يقع منه القصور ، ويقع منه الضعف ، ويقع منه الخطأ ، فكل ذلك لا يزيل عنه الكرامة ، متى فاء إلى الله ، فتاب وأناب :

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ، أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) [50] .

" كل بني آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون " [51] .

* * *

وكان الدين الذي اعتنقته أوربا دينا رهبانيا يكبت الدوافع الفطرية ويحتقرها ويستقذرها ، ويردى الرفعة في إغلاق السبل عليها . وكان رد الفعل " النهوضي " عندهم هو الانطلاق مع الدوافع الفطرية إلى أقصى

48() سورة الإسراء [70] .
49() سورة الشمس [7 – 10] .
50() سورة آل عمران [135 – 136] .
51() أخرجه الشيخان .

حد .. إلى حد الحيوانية .. والثورة على كل قيد يمنع الانطلاق . فما موقف الإسلام من هذه القضية ؟

الإسلام هو نقطة الوسط المتوازن بين النقيضين المتطرفين :

الإسلام لا يستقذر الدوافع الفطرية ولا يكبتها ، بل يدعو إلى إعطائها مجالها الطبيعي لتعمل ، ولكنه يضبطها ليرفع منطلقها ، ويربطها بالقيم العليا لكي لا تسف وتهبط إلى مستوى الحيوان ، ويظل أداؤها " إنسانيا " في جميع الأحوال :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ، قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ، الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ، الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ) [52] .

" وإن في بضع أحدكم لأجرا . قالوا يا رسول الله ، إن أحدنا ليأتي زوجه شهوة منه ثم يكون له عليها أجر ؟ قال : أرأيت لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فإذ وضعها في حلال فله عليها أجر " [53] .

" ألا إني أتقاكم لله ، ولكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني " [54] .

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) [55] .

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [56] .

(الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ) [57] .

* * *

وكان الدين الذي اعتنقته أوربا يقر الثبات في كل شيء ويمنع التطور ويحاربه ، ثم كان رد الفعل " النهوضي " عندهم هو إحداث التطور في كل شيء ، والنظر إلى الثبات – على إطلاقه – على أنه مَعْجَزَة وجمود

52() سورة آل عمران [14 – 17] .
53() أخرجه مسلم .
54() أخرجه مسلم .
55() سورة الأعراف [31] .
56() سورة الأعراف [32] .
57() سورة المائدة [5] .

ورجعية ومخالَفَة لطبيعة الكون وطبيعة الحياة .. فما موقف الإسلام من هذه القضية ؟

الإسلام هو نقطة الوسط المتوازن بين النقيضين المتطرفين :

لا الحياة كلها تتطور .. ولا الحياة كلها ثبات !

هناك ثوابت لا يمكن أن تتغير ، ولا يجوز أن تتغير . وهناك متغيرات لا يمكن أن تثبت على حالها ولا يجوز أن تثبت . وحين توضع الثوابت على الخط المتغير تفسد الحياة . وحين توضع المتغيرات على الخط الثابت تفسد الحياة . والإسلام يعالج الأمرين كلا بما يستحقه ، فيثبّت الثوابت ويسمح بالمتغيرات !

الله سبحانه وتعالى موجود . ووجوده ثابت لا يتغير ، لأنه حيّ قيوم أزلي أبدي :

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [58] .

وهو الخالق سبحانه ، والإنسان من مخلوقاته .. ومن حق الإله أن يُعْبَد ، ومن واجب المخلوق أن يعبد إلهه .

تلك قضية ثابتة .. حين توضع على الخط المتغير كما صنعت أوربا في جاهليتها المعاصرة يترتب على ذلك أن الإله الحقيقي لا يعبد ، وتعبد بدلا منه آلهة زائفة ، لأن الإنسان عابد بفطرته .. لا بد أن يعبد .. وليس الفرق بين إنسان وإنسان أن هذا يعبد وذاك لا يعبد .. إنما الفارق أن إنسانا يعبد الإله الحق ، وإنسانا يعبد آلهة أخرى مع الله أو من دونه سواء . وحين يخيل للإنسان في لحظة غروره – أو تمرده – أنه لا يعبد شيئا أبدا فهو في تلك اللحظة عابد لهواه :

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) [59] .

وحين يعبد هواه يفسد ، وتفسد معه الأرض ..

والقضية الكبرى في حياة الإنسان منذ سكن هذه الأرض .. القضية التي يترتب عليها حاله في الدنيا ومآله في الآخرة ، هي هذه القضية : هل يعبد الله الحق ، الجدير بالعبادة ، فتستقيم حياته فـي الدنيا والآخرة ، أم يعبد آلهة أخرى معه أو من دونه ، فتفسد حياته في الدنيا والآخرة ؟ وهي هي القضية التي أرسل من أجلها الرسل ، وأقيمت من أجلها الجنة والنار .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) [60] .

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً) [61] .

(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) [62] .

58() سورة الحديد [3] .
59() سورة الجاثية [23] .
60() سورة الأنبياء [25] .
61() سورة النساء [36] .
62() سورة هود [50] .

ومقتضى عبادة الله اتباع ما أنزل الله :

(اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) [63] .

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ) [64] .

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [65] .

(قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) [66] .

وحين يتبع الإنسان ما أنزل الله يكون في موضع الرفعة والتكريم :

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) [67] .

وحين يخلد إلى الأرض ويتبع هواه تزول عنه الرفعة والتكريم :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ، سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ) [68] .

أما المنهج الرباني المنزل من عند الله في الرسالة الأخيرة ، الموجهة إلى البشرية كافة ، والتي اكتمل فيها الدين ، فقد روعي فيه من لدن منزّله سبحانه أن يكون وافيا بحاجات الإنسان كلها ، ثابتها ومتغيرها ، بحيث لا تأسن الحياة في ظله حين يُتَّبع على بصيرة ، ولا تنفلت كذلك بلا ضوابط تضبط انطلاقها .

فهناك في التشريع الرباني ثوابت ومتغيرات :

من الثوابت عبادة الله وحده بلا شريك .

ومن الثوابت حرمة الدم والمال والعرض .

ومن الثوابت تنظيم علاقات الجنسين في قنوات منضبطة بحيث لا تنقلب إلى فوضى .

63 () سورة الأعراف [3] .
64 () سورة الشورى [21] .
65 () سورة البقرة [28 – 29] .
66 () سورة طه [123 – 124] .
67 () سورة المجادلة [11] .
68 () سورة الأعراف [175 – 177] .

ومن الثوابت تنظيم علاقات الأسرة والمحافظة عليها وعلى ترابطها وتوزيع المغانم والمغارم فيها بالعدل .

ومن الثوابت تحريم الربا والغصب والسرقة والغش والخداع فـي المعاملات الاقتصادية .

وكل هذه وضعتها الجاهلية المعاصرة على الخط المتغير فحدث ما حدث من الفساد في الأرض .

وهناك متغيرات تنشأ من الاحتكاك الدائم بين العقل البشري وطاقات الكون المادي ، فتتغير معها صورة الحياة ، كلما عرف الإنسان جديدا من خواص المادة ، فاستغل المعرفة في التحسين والتجميل والتكميل ، الذي هو ديدن الفطرة ، والذي أودعه الله في الفطرة ليكون دافعا لعمارة الأرض وتنمية الحياة وترقيتها . وموقف الشريعة تجاه هذه المتغيرات على نوعين ، بحسب نوع التغير الذي يحدث . فبعضها وضعت له الشريعة قواعد ثابتة تحكم المتغيرات دون أن تحبسها في إطار معين . كالثوابت التي تحكم المعاملات الاقتصادية وتتغير الصورة تحتها من اقتصاد رعوي إلى اقتصاد زراعي إلى اقتصاد صناعي ، دون أن تتغير الثوابت التي تحكمه ، فيجتهد فيه العلماء الفقهاء في حدود الثوابت المقررة . وبعضها – كالتنظيمات الإدارية ، وكنظام المرور مثلا – لم تتعرض له الشريعة لأنه من المصالح المرسلة المتروكة للعقل البشري ، يجتهد فيها بما يحقق المصلحة للمسلمين . وفي جميع الأحوال يكون شرط الاجتهاد ألا يحل حراما أو يحرّم حلالا أو يصادم مقاصد الشريعة ، ولا مجال هنا للتفصيل ، إنما مكانه كتب الفقه والأصول . ولكن الذي نريد الإشارة إليه هنا هو تلك المرونة التي جعلها الله في شريعته الخاتمة ، التي أنزلها لتحكم الحياة البشرية مدى الزمن كله من مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فتتسع لكل جديد صالح ، وتبقى ثوابتها ثابتة حيث يلزم الثبات .

* * *

إذا تأملنا هذه الخصائص التي جعلها الله في هذا الدين ، نجد أن المسلم السوي لم يكن قط – ولا يكون قط – في موقف الصراع مع دينه ، ولا هو في حاجة أن ينبذه ويتمرد عليه ، كما كان الحال مع الدين الذي اعتنقته أوربا ، والذي لم يكن لها بد من الصراع معه ، ونبذه والتمرد عليه ، إن أرادت أن تنهض وتتحرك وتتجدد وتنمو .. فحيثما توجه المسلم السوي ، في أي نشاط من نشاطاته ، وفي أي مجال من مجالات حياته ، فلن يجد الدين حاجزا يحجزه ، بل يجد على العكس من ذلك أن الدين هو الذي يحثه ويستنهض همته ، ويدفعه إلى العمل والنشاط .

والشاهد هو التاريخ ..

فالأمة التي حملت الإسلام إلى البشرية لم تكن قبل اعتناقها الإسلام أمة علم ، ولم تكن لها عناية كبيرة بعمارة الأرض . والإسلام هو الذي دفعها للبحث العلمي حتى صارت في يوم من الأيام هي الأمة العالمة في الأرض ، التي تتتلمذ عليها البشرية في العلوم . والإسلام هو الذي دفعها لاستنباط المنهج التجريبي في البحث العلمي الذي هو عماد التقدم الذي

حدث في كل ميادين العلم الحديث . والإسلام كذلك هو الذي دفع المسلمين إلى المشي في مناكب الأرض وكشف مجاهلها ، وعمارتها بشتى أنواع العمارة من زراعة وصناعة وتجارة ، وبناء مدن وإنشاء طرق وتنظيم وسائل اتصال ، فضلا عن الخدمات الإنسانية الرفيعة ، من تعليم مجاني ، وتطبيب مجاني ، وأوقاف للخير ، ونشر للبر . وهذه الحضارة التاريخية الفذة ، المتعددة الجوانب ، الشاملة لكيان الإنسان كله : جسده وعقله وروحه . دنياه وآخرته . نشاطه العلمي ونشاطه العملي ونشاطه الفكري ، إنتاجه المادي وإنتاجه الروحي ، لا نقول فقط إنها تمت في ظل الإسلام بلا تعارض معه ولا صراع ، ولكن نقول إنها كانت نتاج الإسلام ، وترجمة واقعية للروح الدافعة في هذا الدين .

أما المسيرة التاريخية للأمة الإسلامية فهي لا تخرج عن إحدى حالتين : إما التزام بهذا الدين ، وتمسك به على وعي وبصيرة ، وإما تفلت منه ، وانحراف عن مفاهيمه .

وشهادة التاريخ تقول : إن فترات الالتزام والتمسك هي فترات القوة والتمكين والرفعة والازدهار في جميع الجوانب ، وفترات التفلت والانحراف ، هي فترات الضعف والهبوط وزوال التمكين . وإن القرون الأولى كانت خير القرون في جميع المجالات ، وإن القرن الأخير هو أسوأ القرون جميعا في تاريخ الأمة الإسلامية ، ولذلك دلالة واضحة ؛ فالقرون الأولى كانت هي قرون التمسك الواعي بهذا الدين ، والعمل بمقتضياته في عالم الواقع . والقرن الأخير هو فترة التيه في حياة الأمة ، التي نسيت فيها دينها ، واتخذت لها مراجع من غير هذا الدين ، وانسلخ فيها من انسلخ من الإسلام .

والدلالة الواضحة لذلك أن منبع القوة لهذه الأمة هو هذا الدين ، ومصدر الضعف الذي يلم بها هو البعد عنه . بل هناك ما هو أوضح دلالةً على هذه الحقيقة .. فتاريخ هذه الأمة ليس كله صعودا وليس كله هبوطا على خط منحدر . إنما هو تاريخ يشتمل على ذبذبات صاعدة وهابطة . وفي فترة من تاريخ الأمة كانت البدع والانحرافات والترف والتفلت من التكاليف قد وصلت حد لم تكن قد بلغته من قبل ، فتكالب الأعداء عليها من كل جانب : الصليبيون والتتار والرافضة والفرق الباطنية ، وكادت الأمة تهلك وتزول من التاريخ ، وذلك في نهاية العصر العباسي الثاني ، فكان العلاج الذي تعاطته – بفضل من الله – هو العودة لهذا الدين .. وعندئذ نفضت عنها ضعفها وتخاذلها وتقاعسها ، وعادت لها حيويتها ، فطردت التتار والصليبيين ، وعادت ممكنة في الأرض فخمدت شوكة الأعداء .

وهنا نقطة تقابل أخرى بين الأمة التي اعتنقت دين بولس ، والأمة التي اعتنقت دين الله الحق . فالأمة التي اعتنقت دين بولس كان دينها هو الداء ، كلما زادت جرعته في حياتها زاد ضعفها وفسادها والظلمات التي تحيط بها ، وكان جزءا من علاجها أن تخرج من ذلك الدين . بينما الأمة التي اعتنقت الدين الحق كانت عافيتها وحيويتها ورفعتها وقوتها في دينها ، كلما زادت جرعته في حياتها زادت تمكينا في الأرض ، ونجاحا في المسيرة في الحياة الدنيا ، فضلا عن رضوان الله في الآخرة .

وتلك حقيقة تاريخية مهمة يجب أن يفيء إليها الذين يدعون إلى تقليد أوربا بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، والذين يظنون – بفعل تبعيتهم الفكرية للغرب – أن " الدين " كله دين ! لا فرق فيه بين زائف وأصيل ، وأنه – كله – مادة ضارة يجب أن تنبذ ، أو في القليل يحجم استخدامها فينحصر في أضيق الحدود ! بينما الغرب ذاته – الذي يتبعونه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير – يعرف جيدا حقيقة الإسلام ويعرف إلى أي مدى هو مصدر قوة لهذه الأمة ، ولذلك يحارب الصحوة الإسلامية الحاضرة بضراوةٍ وحشية ، خشية أن تزحزحه عن مكانه الذي ما احتله إلا في غيبة هذه الأمة ، وبسببٍ من غيبتها في التيه [69] .

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) [70] .

* * *

ولكن هناك وَهْماً ضخما يسيطر على الناس في الجاهلية المعاصرة ، منشؤه التمكين المادي الذي أحرزه الغرب في تاريخه الحديث . ذلك الوهم هو الظن بأن هذا التمكين لا يمكن أن ينشأ إلا عن منهج سليم للحياة ! ومن ثم فكل ما يفعله الغرب صحيح وسليم ومستقيم !

والذين يقولون ذلك أو يعتقدونه هم في جهل كبير بالسنن الربانية التي يُجْرِي الله بها حياة البشر على الأرض . فلو أن الله قد قدر ألا يحصل على التمكين إلا الطيبون الصالحون المستقيمون لكان ظنهم في مكانه ، ولكان هناك ارتباط بين التمكين في الأرض وسلامة المنهج من ورائه . ولكن انظر إلى سنة الله في هذا الأمر :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً ، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً ، كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً) [71] .

فهذا تقرير صريح من الله سبحانه وتعالى أنه يعطي التمكين في الدنيا للمؤمن والكافر على السواء . أي لصاحب المنهج الصحيح وصاحب المنهج المعوج على السواء !

إنما يرتبط التمكين – حسب السنن الربانية – بمعايير أخرى وأدوات أخرى غير استقامة المنهج أو فساده تبينها الآية التالية :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ) [72] .

والإرادة المذكورة في الآية ليست مجرد الرغبة ! فالرغبة بلا عمل لا تؤدي إلى شيء . إنما هي الرغبة مع استخدام الأدوات المؤدية إلى تحقيق

69() اقرأ إن شئت كتاب " هلم نخرج من ظلمات التيه " .
70() سورة البقرة [146] .
71() سورة الإسراء [18 – 20] .
72() سورة هود [15] .

الرغبة ، من جهد عقلي ونفسي وعصبي وجسدي ، يشمل البحث العلمي ، والدأب والمثابرة ، والجد في العمل ، والتنظيم ، وطول النفس ، ووضح الهدف .. فحين تتوافر هذه الأسباب فقد قضى الله أن يُوَفِّي للقائمين بها جزاء جهدهم في الحياة الدنيا ، ولا يبخسهم جهدهم . ويتم هذا بمشيئة من الله وليس تلقائيا كما يظن الجاهليون !

بل يقول الله سبحانه وتعالى ما هو أشد لفتاً للنظر من ذلك :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ..) [73] .

أي لما زاد فسادهم واشتد ، فتحنا عليهم أبواب التمكين من كل جانب !

ولله حكمته في ذلك . فهذا تمكين الاستدراج ، يستدرج به الله الخارجين على عبادته ليزدادوا إثما :

(وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) [74] .

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) [75] .

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) [76] .

وذلك فضلا عن كون هذا التمكين مهما طال فنهايته الدمار :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ، فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [77] .

وفضلا عـن " الضنك " الذي يعيشون فيه رغم الوفرة المادية وفتح أبواب التمكين عليهم :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ..) [78] .

وهذا الضنك في حياة الغرب اليوم يتبدى واضحا في الأمراض النفسية والعصبية والقلق والانتحار والجنون والخمر والمخدرات والجريمة ، التي تتزايد على الدوام ولا يجدون إلى وقفها من سبيل .

وذلك كله فضلا عن المصير البئيس في الآخرة :

73() سورة الأنعام [44] .
74() سورة آل عمران [178] .
75() سورة القلم [14 – 15] .
76() سورة النحل [25] .
77() سورة الأنعام [44 – 45] .
78() سورة طه [124] .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [79] .

أما الذين آمنوا فيشتركون في جانب من هذه السنن ويفترقون في جانب .

يشتركون في أنه لا تمكين بغير جهد يبذل ، وأدوات تتخذ .. ذات الجهد الذي يبذله الكفار من أجل التمكين ، وذات الأدوات : الجهد العقلي والنفسي والعصبي والجسدي ، الذي يشمل البحث العلمي ، والدأب والمثابرة ، والجد في العمل ، والتنظيم ، وطول النفس ، ووضوح الهدف ..

ويفترقون – بالنسبة للحياة الدنيا – في أمرين ، يتحققان في تمكين الرضا ، ويفتقدان في تمكين الاستدراج ، هما البركة والطمأنينة .

(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) [80] .

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ..) [81] .

الطمأنينة مقابل القلق والانتحار والخمر والمخدرات والجريمة .
والبركة مقابل الضنك .

أما في الآخرة فالفارق هو فارق الجنة والنار ..

تلك هي السنن الربانية التي تحكم هذا الأمر . ويتبين منها أن النجاح المادي والتمكين في الأرض ليس في ذاته دليلا على استقامة المنهج وصلاحه ، ما دام هذا التمكين يمنح للكافر والمؤمن على السواء ! إنما هو دليل فقط على الاجتهاد في اتخاذ الأسباب ، ولا شك أن الغرب في جولته الراهنة قد برع براعة فائقة في اتخاذ الأسباب التي تؤدي إلى التمكين المادي ، وبلغ فيها ما لم تبلغه أمة في التاريخ .

أما استقامة المنهج فأمر آخر مختلف ، لا علاقة له بالتمكين المادي ، وتدل كل الدلائل على الانحراف الواقع في حياة الغرب اليوم فيما يتعلق بمنهج الحياة ، والقيم التي يعيش الناس من أجلها هناك .

إن الغرب – في جولتيه الماضية والحاضرة – قد أخذ جانبا واحدا من الإنسان ومن الحياة الإنسانية ، وأهمل الآخر .

ففي جولته الماضية – التي تمثلها العصور الوسطى الأوربية – ركز على عالم الغيب ، وعالم الآخرة ، وعالم الروح ، وأهمال عالم الشهادة ، وأهمل الحياة الدنيا ، وأهمل الجسد ودوافعه ، فضلا عن الحجر الذي فرضته الكنيسة على العقل ، وكان ذلك كله سببا في الظلمات التي توصف بها العصور الوسطى هناك .

79() سورة هود [15 – 16] .
80() سورة الرعد [28] .
81() سورة الأعراف [96] .

وفي جولة الحاضرة – التي بدأت منذ " النهضة " حتى الوقت الحاضر – ركز على عالم الشهادة ، والحياة الدنيا ، ونشاط الجسد ولذائذه الحسية ، وأهمل عالم الغيب ، وعالم الآخرة ، وعالم الروح ، فضلا عن تأليه العقل وجعله هو المحكم في كل الأمور ، ما يصلح له وما لا يصلح على السواء . وكان ذلك سببا في انحدار القيم والمبادئ والتحلل الخلقي الذي لا مثيل له في التاريخ .

في كلا الحالين كان الغرب يعيش في الظلمات ! كان يعيش بمسخ مشوه هو نصف إنسان ! إما هذا النصف وإما النصف الآخر . ولم يجتمع له قط كيانه المتكامل الذي خلق الله عليه " الإنسان " .

ولا يعني هذا أن حياة الغرب – في كلتا جولتيه – كانت كلها شرا أو أنها خلت من جوانب الخير ! كلا ! فما من جاهلية فـي التاريخ كله كانت كلها شرا ، وكانت خالية من الخير .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجاهلية العربية : " خياركم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا " [82] .

ومعنى ذلك أنه يوجد خيار في الجاهلية !

ويقول عليه الصلاة والسلام : " دعيت إلى حلف في الجاهلية في بيت ابن جدعان لو دعيت إليه في الإسلام لأجبت " ! [83]

ولكن الخير الجزئي المتناثر في الجاهليات لا يمنع وَسْمَ الجاهلية بأنها جاهلية ! ولا يعطيها شرعية الوجود من ناحية أخرى . ولا يمنع عنها الدمار في النهاية !

والخلاصة من هذا الأمر كله – فيما نحن بصدده في هذه العجالة – أن منهج الغرب في تناوله للعلوم الاجتماعية منهج لا يتفق معنا لأنه نتاج ظروف غير ظروفنا ، وليس علما " موضوعيا " كما يزعم الغرب ، وأن التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية حاجة ملحة للأمة الإسلامية ، وأن الصحوة ينبغي أن تضع هذا الأمر في حسابها ، وتوجه له من الاهتمام ما هو جدير به ، وإلا فسيظل الغزو الفكري المنبث في هذه العلوم في الوقت الحاضر يفسد عقول الدارسين ، ويبث فيها تبعية مريضة تجاه الغرب !

82() أخرجه مسلم .
83() انظر سيرة ابن هشام جـ 1 صـ 133 .

كيف يكون التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية

تجدر الإشارة أولا إلى أننا اخترنا كلمة " التأصيل الإسلامي " بدلا من كلمة " الأسلمة " التي شاع استخدامها في الفترة الأخيرة ، لأن كثيرا مما كتب في مجال " أسلمة العلوم " لم يكن تأصيلا إسلاميا حقيقيا بالمعنى المطلوب ، بقدر ما كان اعتمادا للمفاهيم الغربية ، مع وضع " طلاء " إسلامي عليها ، يتمثل في بعض الآيات والأحاديث التي يرى مستخدموها أنها تناسب الموضوع !

التأصيل الإسلامي عمل مختلف .. إنه الانطلاق ابتداء من منطلق إسلامي ، سواء التقى بعد ذلك في بعض الجزئيات أو لم يلتق مع ما كتبه الغرب في تلك العلوم . فليس القصد الالتقاء لمجرد الالتقاء ، ولا الاختلاف لمجرد الاختلاف . إنما القصد التعرف على التصور الإسلامي ، وزاوية الرصد الإسلامية ، ثم الانطلاق منها إلى حيث تؤدي بنا باستخدام الوسائل العلمية المشهود لها ، والتي تناسب البحث المطلوب . وسنجد حين نفعل ذلك أن الخلاف الجوهري هو في نقطة الانطلاق . في زاوية الرؤية . في تفسير الوقائع ، ووضعها في مكانها في الصورة المتكاملة . وليس من الضروري في كل حالة أن يكون هناك خلاف في الجزئيات . ففي التاريخ مثلا أو في الاجتماع قد نتفق معهم في رصد الظاهرة التاريخية أو الظاهرة الاجتماعية لأنها واقع مشهود لا يختلف الناس في رؤيته . ولكن تفسيرهم للظاهرة ، المنبثق من رؤيتهم الخاصة ، كثيرا ما نختلف معهم فيه ، لأن رؤيتنا مختلفة عن رؤيتهم ، ورصيدنا الواقعي مختلف عن رصيدهم ، والميزان الذي نزن به مختلف عن ميزانهم . وأوضح مثال على ذلك أنهم يرون أن إلغاء عالم الغيب (الذي يسمونه الميتافيزيقا) أو في القليل إهماله ، كان تقدما تاريخيا واجتماعيا وإنسانيا اكتسبه الغرب في عصره الحاضر ، بينما نرى نحن ذلك انتكاسة إنسانية لا تليق بالإنسان .. فالظاهرة متفق عليها لأنها واقع مشهود ، ولكن تفسيرها عندنا وعندهم تفصل بينهما هوة لا لقاء بين أطرافها !

وحين يكون حديثنا عن العلوم الاجتماعية فالمنطلق الذي ننطلق منه هو تصورنا " للإنسان " . فمن هذا التصور تتفرع كل العلوم التي تتعامل مع " الإنسان " في شتى نشاطاته ومجالات حياته ، سواء التاريخ أو الاجتماع أو الاقتصاد أو التربية أو علم النفس أو الآداب . فكل علم من هؤلاء يتناول جانبا من حياة الإنسان ، يحاول تفسيره وتقنينه وتحليله وإلقاء الضوء عليه . ويختلف كل علم عن الآخر فيما يركز اهتمامه عليه ، وفي طريقة تناوله للجانب الذي يركز عليه ، ولكنها تشتبك جميعا عند الأصل المشترك وهو " الإنسان " [84] .

84() يحسن بنا هنا أن نشير إلى أن بعض جامعاتنا تسمي هذه الدراسات أو بعضا منها " بالعلوم الإنسانية " ترجمة لكلمة Humanities المستخدمة في الغرب ، ظنا منهم أن المقصود بالكلمة هو " العلوم المتعلقة بالإنسان " وهذا غير صحيح بالنسبة للمصطلح

وحين يكون هدفنا هو التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية ، فنقطة البدء التي ننطلق منها هي محاولة التعرف على صورة " الإنسان " كما تعرضها المصادر الإسلامية [85] ، فنسأل أنفسنا أولا ثم نحاول الإجابة : ما الإنسان ؟ ما تكوينه ؟ ما حدود طاقاته ؟ ما غاية وجوده ؟ ما معيار إنجازاته ؟ ما موقفه من الضغوط الواقعة عليه ، سواء من داخل نفسه أو من خارجها ؟ ما مبدؤه وما منتهاه ؟

وحين نجد الإجابة الصحيحة نكون قد خطونا الخطوة الأولى ، التي نأخذ بعدها في التطبيق على كل علم بمفرده ، مستندين إلى ذلك التصور العام ، الذي تلتقي عنده وتتفرع عنه كل العلوم .

* * *

وربما يسأل سائل – وكثير هم الذين يسألون – لماذا لا نأخذ التصور " الجاهز " الذي توصل إليه الغرب في دراساته ، والغرب قد تقدم عنا مراحل شاسعة في كل مجالات العلم وكل مجالات البحث ، وأصبحت لديه إجابات " معيارية " عن هذه الأسئلة جميعا تكفينا مئونة البحث ، وتوفر عليها الجهود ؟!

فنقول بادئ ذي بدء إن التصور الغربي للإنسان يشتمل على خللين أساسيين : الخلل الأول هو اعتبار أن الإنسان هو ذلك الحيوان الداروينى المتطور ، الذي قدمته نظرية دارون في القرن الماضي ، وما تزال تغذيه في كثير من مجالات الدراسة ، والدراسات الاجتماعية بصفة خاصة . والخلل الثاني هو دراسة الإنسان بمعزل عن خالقه الذي أنشأه وأخرجه إلى الوجود ، كأنما الإنسان هو الذي خلق نفسه ، أو وجد بغير موجد ! ومن ثم فهو المرجع وهو المعيار لكل ما يصدر عنه من أفعال وتصرفات !

وسنتكلم عن موطن الخلل في كل من هذين الأصلين الخطيرين اللذين يحكمان الدراسات الغربية في العلوم الاجتماعية ، بوعي منهم أو بغير وعي ، ويؤثران في النتائج النهائية التي يصلون إليها في هذه العلوم .

فبالنسبة للخلل الأول تقول الداروينية إن الإنسان لم يخلق إنسانا من أول لحظة ، إنما هو تطور عن كائن آخر هو القرد الشبيه بالإنسان ، المتطور بدوره عن أحد القردة العليا الأربع : الشمبانزي والغوريللا والأورانج أوتانج والجيبون ، وإنه مر في تطوره بمراحل عدة ، كان يقترب فيها في كل مرة من وضعه الحالي . فكان في مبدأ أمره يمشي على أربع ، وينتصب قائما أحيانا كما تفعل القردة العليا ، ثم زاد انتصاب قامته حين أخذ يأكل من ثمار الأشجار ، فأصبح رأسه من ثم يرتكز على الجذع أكثر مما يكون معلقا في الفضاء ، فأتيح لمخه أن يكبر ، فتكلم وتعلم ، ورويدا رويدا على مدى من الزمن لا يكاد يحصى أصبح هو " الإنسان " !

وما نريد أن نناقش النظرية الداروينية ذاتها ، ومدى صحة الفرضية التي قامت عليها ، ففي الساحة العلمية اليوم أكثر من رأي بالنسبة لأصل

كما يستخدمه الغربيون . فهم يقصدون به – منذ عصر النهضة عندهم – " العلوم التي تؤخذ المعرفة بها من الإنسان لا من الوحي الرباني " ! أي أنها تعني عندهم اتخاذ الإنسان مصدرا للمعرفة بدلا من الله ! فلنتنبه ونحن ننقل المصطلحات !

85() الكتاب والسنة والعلوم المتعلقة بهما .

الحياة وأصل الإنسان ، ولم تعد النظرية الداروينية هي وحدها التي تحاول تفسير القضية ، وتفرض نفسها على الساحة [86] .

ولكننا نقول إنه حتى على فرض صحة النظرية – وهو فرض جدلي لا نسلم به – فقد كانت هناك عدة انحرافات في التطبيق بالنسبة للإنسان .

ففي النظرية التي اتخذت " التطور " اسماً لها ، وعَلَماً عليها ، جرى التركيز على الخصائص الجديدة التي " يكتسبها " الكائن المتطور ، لا على السمات التي يشترك فيها مع الكائنات السابقة عليه ، التي لم تسر على خط التطور مثله . فهناك – مثلا – بحسب النظرية ، كائن ليس له جهاز سمعي ، تلاه في التطور كائن يشبهه في كثير من الخصائص ، ولكنه " اكتسب " جهازا سمعيا لم يكن موجودا في الكائنات المشابهة له ، السابقة عليه ، والتي تطور عنها . فعند الحديث عن هذا الكائن يكون التركيز على هذه الحاسة الجديدة التي " اكتسبها " والأطوار التي مرت بها حتى اكتملت في وضعها النهائي . وكذلك لو كان الكائن قد " اكتسب " جهازا بصريا أو جهازا للطيران ، أو جهازا لتنظيم الدورة الدموية .. إلخ ، مما لم يكن لأقرانه الذين تطور عنهم .

وكان مقتضى ذلك بالنسبة للإنسان أن يكون التركيز على ما تفرد به الإنسان عن أشباهه من الكائنات السابقة عليه ، التي تطور عنها ، لا على أوجه الشبه بينه وبين تلك الكائنات .. وذلك كله على فرض صحة الفرضية من أساسها .. ولكن الذي جرى على يد داروين كان هو التركيز على أوجه الشبه بين الإنسان والقردة العليا (مع افتراض وجود حلقة مفقودة بينهما) أكثر من التركيز على ما تفرد به الإنسان .. أي – بعبارة أخرى – التركيز على حيوانية الإنسان ، وليس على إنسانيته !

وقد حاولت الداروينية الحديثة Neo Darwinism " سدّ هذا الخلل في تطبيق النظرية بالنسبة للإنسان ، فكتب " جوليان هكسلي Jullian Huxley " وهو من عمد الداروينية الحديثة كتابا سماه " الإنسان في العالم الحديث Man in the Modern World " بدأه بفصل طويل بعنوان " تفرد الإنسان Uniqueness of Man " قال فيه إن المعلومات التي بنى عليها داروين كانت ناقصة ، وإن العلم الحديث كشف عن جوانب كثيرة من تفرد الإنسان لم تكن معلومة لداروين ، وجاء في هذا الفصل قوله : " وبعد نظرية داروين لم يعد الإنسان مستطيعا تجنب اعتبار نفسه حيوانا . لكنه بدأ يرى نفسه حيوانا غريبا جدا ، وفي حالات كثيرة لا مثيل له . ولا يزال تحايل تفرد الإنسان من الناحية البيولوجية غير تام " . وجاء فيه : " .. وهكذا وضع علم الحياة الإنسان في مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد المخلوقات ، كما تقول الأديان " . [87] كما جاء فيه : " ... وأخيرا فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوره " [88] .

86() انظر على سبيل المثال كتاب " أصل الإنسان " للعالم الفرنسي موريس بوكاي ، إصدار مكتب التربية الخليجي .

87() يلاحظ أن جوليان هكسلي الذي يقول هذا الكلام كاتب ملحد شديد الإلحاد ، متبجح بإلحاده . ولكن الحقائق " العلمية " فيما يتعلق بتفرد الإنسان تلجئه إلجاء لهذا الاعتراف الذي يحمل في طياته دلالة واضحة .

ولكن على الرغم من هذه المحاولة من جانب الداروينية الحديثة فماذا نرى ؟

ما زال الإنسان حيوانا !

وما زال التركيز على الجانب " البيولوجي " من كيانه ، ولا ذكر على الإطلاق للجانب الروحي من الإنسان !

إن الذي تطور في الإنسان – كما تقول الداروينية – هو عقله وإبهامه !

عقله تطور حين تعود الإنسان – أو الكائن الشبيه بالإنسان – على الوقوف منتصبا لفترات طويلة ليأكل من ثمار الشجر [89] .. فارتكز رأسه على الجذع ، فأتيح للمخ أن يكبر ، فتعلم وتكلم .. وإبهامه تطور (لا أدري لماذا !) فصار يحسن الإمساك بالأشياء فاستخدم الأدوات ، ثم سعى إلى تحسينها ، فصارت له حضارة .. وصار له تاريخ !

ولكنه فيما عدا هذا حيوان ! كان وما يزال !

ولا ندري على وجه التحديد ما الذي حدا بداروين – والداروينية الحديثة من بعده – إلى التركيز على الجانب الجسدي من الإنسان – أو البيولوجي كما يقول هكسلي – وإن كنت أحسب أن جو الصراع بين الكنيسة و " العلماء " ، ورغبة هؤلاء في مكايدة الكنيسة بتوهين ركائزها وتسخيف مقولاتها ونفي مقرراتها كان وراء هذا الاتجاه .. ولكن النتائج كانت خطيرة جدا ، في ميدان العلوم الاجتماعية بصفة خاصة .

ولأمر ما نشرت هذه النظرية على نطاق واسع في كل الأرض [90] ! ولكن الذي يعنينا منها هنا على أية حال هو تأثيرها على الدراسات الاجتماعية بالذات .

الإنسان حيوان .. كان وما يزال ! تطور منه ما تطور ولكنه لم يخرج من حيوانيته ! فما أهداف الحيوان ؟ وما مشاغله ؟

إن له هدفين رئيسيين : الأول صراع البقاء ، والثاني الاستمتاع ، المتمثل في الطعام والشراب والجنس .

والحيوان يقوم بهذين الأمرين بدافع الغريزة ، بغير وعي منه لما يفعل ، ولا وعي منه بأنه يقوم بما يقوم به من أعمال وتصرفات لتحقيق هذين الهدفين الرئيسيين في حياته .

ولكن الحيوان المتطور قد " اكتسب " الوعي حين كبر مخه نتيجة انتصاب قامته ، فلم تعد كل أعماله غريزية ، بل حتى الغريزي منها صار الإنسان يمارسه بوعي منه ، يبدأ بإدراك الرغبة وينتهي إلى تحقيقها مرورا بالبحث عن الوسائل المادية إلى إشباعها ..

88() جوليان هكسلي ، الإنسان في العالم الحديث ، نشر مشروع الألف كتاب بالقاهرة ، ترجمة حسن خطاب ومراجعة عبد الحليم منتصر ، مقتطفات من ص 3 – ص 9 من الترجمة العربية .

89() يبدو أن همه الأكبر كان هو الأكل !

90() تقول " بروتوكولات حكماء صهيون " في البروتوكول الثاني : لقد رتبنا نجاح داروين ونيتشه ، وإن تأثير أفكارهما في عقائد الأمميين واضح لنا بكل تأكيد !

نعم ! ولكن الأهداف هي الأهداف ! صراع البقاء والاستمتاع .

فأما الحيوان فكان يستخدم قوته العضلية ليأخذ مكانه في صراع البقاء ، وليحصل على ضروراته ، وأحيانا يستخدم الحيلة ولكن بوحي الغريزة ، وفي نطاقها .

وأما الحيوان المتطور فهو – إلى جانب عضلاته – يستخدم الأداة المستجدة التي " اكتسبها " في تطوره ، وهي العقل ، وكلما ارتقى صار استخدامه للعقل أوسع مدى وأكثر فاعلية ، وذلك فضلا عما يتيحه له التطور الآخر – تطور إبهامه – من استخدام أدوات لا حصر لها لتحقيق أهدافه .

وأما الاستمتاع فقد ارتقى كذلك مع الحيوان المتطور ، باستخدام التطورين الرئيسيين في كيانه ، فدخل فيه العقل على نطاق واسع ، يستجد فيه كل حين لونا جديدا من ألوان الاستمتاع ، ويستخدم في سبيل ذلك مزيدا من الأدوات يخترعها العقل ، وتستخدمها اليد ذات الإبهام المتطور !

وتنشأ من ذلك الحضارة ..

فالحضارة من جانب هي حصيلة سعى الإنسان لإثبات ذاته في صراع البقاء ، وسعيه إلى الاستمتاع من جانب آخر ..

فسعية إلى إثبات ذاته في صراع البقاء يتمثل في القوة الحربية ، والقوة السياسية ، والقوة العلمية ، والقوة الاقتصادية ، وسعيه إلى الاستمتاع يتمثل في " الفن " بمحتلف انواعه إلى جانب المتاع الحسي المباشر بما يلبي نداء الشهوات ..

وهذه – بشقيها – هي معايير إنجازاته !

فالأمم تقاس بالقوة الحربية والقوة السياسية والقوة العلمية والقوة الاقتصادية التي تمكنها من البقاء في حومة الصراع ، وتكفل لها – كلما تمكنت – سحق القوى الأخرى أو التغلب عليها – كما تقاس كذلك بتعدد الفنون التي تستخدمها من أجل الاستمتاع .

ويكون هذا هو المعيار التاريخي ، والاجتماعي ، الذي تقاس به " عظمة " الأمم خلال التاريخ .

أين مكان " القيم " في هذا التصور ؟ .. نعني ما نسميه " القيم العليا " من نشر العدل وإزالة الظلم ونشر الخير ، وإشراك الناس في الخير بدافع " الإنسانية " بصرف النظر عن " المنفعة " ، والتعاون على البر والتقوى ؟! هل لها مكان ؟

إنها كلام جميل يتحدث عه المتحدثون ! وشعارات ترفع بين الحين والحين .. أو في كل حين ! ولكنها عند الجد لا تؤخذ مأخذ الجد ! فإنه لا مكان لها عند الحيوان الأصلي ، ولا مكان لها كذلك عند الحيوان المتطور ! .

* * *

الخلل الثاني في التصور الغربي هو دراسة الإنسان بمعزل عن خالقه ، كأنما هو قد خلق نفسه ، أو كأنما وجد بغير موجد ! ويترتب على ذلك – عندهم – ألا تكون للإنسان مرجعية خارج حدود ذاته ! إنما يكون " هو " مرجع نفسه ، فما يراه " هو " يكون هو الأصل وهو الصواب . أي أنه – بعبارة أخرى – هو الإله .

ومن الوضح أن هذا الخلل في فكر الغرب قد نشأ من الصراع ضد الكنيسة وطغيانها . أو قل : من فساد الدين الذي اعتنقته أوربا ، والذي أفرز الكنيسة بادئ ذي بدء ، ثم أفرز طغيانها في جميع المجالات التي طغت فيها : الروحية والمالية والفكرية والسياسية والعلمية ، مما فصلناه في غير هذا المكان [91] .

لقد كان رد الفعل الأوربي تجاه فساد الدين وطغيان الكنيسة منذ عصر " النهضة " – كما أشرنا في الفصل السابق – هو التمرد على سلطان الكنيسة ، والتمر على الله ذاته – سبحانه وتعالى – وإقامة الإنسان نفسَه مرجعا بدلا من الله (وكان هذا – كما أشرنا من قبل – مولد " العلوم الإنسانية Humanities " أي العلوم التي يؤخذ العلم فيها من الإنسان لا من الوحي الرباني) .

ولسنا نحن الذين نقول ذلك من عند أنفسنا ، فكتاباتهم عن أنفسهم مليئة بمثل هذا .

خذ هذا النموذج من كتاب " مبادئ الفلسفة " تأليف رايو برث ، يقول عن عصر النهضة :

" وامتاز هذا العصر بشعور الإنسان بشخصيته المطلقة ، وبمعارضته للسلطة وذويها ، وذهابه شوطا بعيدا في اعتبار العالم كله وطنا له [92] ... وقد أعلت النهضة شأن الطبيعة الإنسانية والحياة الدنيوية ، مخالفة في ذلك طريقة التفكير في القرون الوسطى ، ولذلك يسمى العلماء الذين خصصوا أنفسهم لدراسة آداب اليونان والرومان والعلوم عند القدماء " الإنسانيين " ... وكان من خير ما أحدثه هؤلاء الإنسانيون " نمو الفردية " أعني الرأي القائل بأن الإنسان ينبغي أن يفكر بنفسه لنفسه . وهو رأي كان قد أهمل في عصر عبودية العقل " [93] .

وخذ نموذجا أوضح وأصرح . يقول " جوليان هكسلي " في كتابه الذي أشرنا إليه آنفا (الإنسان في العالم الحديث) : إن الإنسان قد خضع لله في الماضي بسبب عجزه وجهله . والآن – وقد تعلم وسيطر على البيئة – فقد آن له أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل في عصر العجز والجهل على عاتق الله ، ومن ثم يصبح هو الله !

91() انظر إن شئت فصل " دور الكنيسة " من كتاب " مذاهب فكرية معاصرة " .

92() يغفل الكاتب – بطبيعة الحال – أثر احتكاك أوربا بالمسلمين ، وتعرفها على الخرائط الإسلامية ، ورغبتها في التعرف على ما كان مجهولا لها من أرجاء الأرض ، والرغبة في استلاب خيرات المسلمين ، في بعث هذا الشعور في نفوس الأوربيين .

93() رايو برث ، مبادئ الفلسفة ، ترجمة محمد أمين ، طبع دار الكتاب العربي ببيروت ، ص 119 – 120 من الترجمة العربية .

ويقول في نفس الكتاب : إن أسطورة بروميثيوس ما تزال كامنة في كيان الأوربي الحديث توجهه على غير وعي منه . فالأوربي المعاصر هو " بروميثيوس الحديث " الذي يريد أن يضع نفسه في مكان الإله . وكلما تعلم ، وزادت سيطرته على البيئة ، ارتفع في حس نفسه درجة ، وهبط الإله مقابل ذلك في حسه بنفس القدر ، حتى إذا استطاع يوما أن يخلق الحياة انتهى الإله من حسه تماما ، وأصبح هو الله .

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ، ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ، ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ، ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ، كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ) [94] **(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)** [95] .

ولم يكن موقف الفارين في الغرب من طغيان الكنيسة ، الفارين في الوقت ذاته من الدين ومن فكرة الإله **(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ، فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ)** [96] خللا عقديا فحسب ، **(وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُبِيناً)** [97] إنما كان إلى جانب ذلك خللا علميا ، وإن ظنت أوربا – في وهلتها – أنها – وقد اهتدت أخيرا إلى العلم – قد اهتدت إلى الأداة البديلة ، التي ستغنيها عن الدين ، وتوصلها في الوقت ذاته إلى الحقائق النهائية التي لا يرقى إليها الشك ، مع تحرير العقل من الخرافة ، وتحرير الضمير الإنساني من الطغيان !

يقول برنتون : " فالمذهب العقلي يتجه إلى إزالة الله وما فوق الطبيعة من الكون . ومن الوجهة التاريخية فإن نمو المعرفة العلمية ، وازدياد الاستخدام البارع للأساليب العلمية يرتبط بشدة مع نمو الوضع العقلي نحو الكون " [98] .

ويقول : " إن السببية تهدم كل ما بنته الخرافات والإلهامات والمعتقدات الخاطئة في هذا العالم " (يقصد المعتقدات الدينية) ثم يقول : " الإله في عرف نيوتن أشبه بصانع الساعة . ولكن صانع هذه الساعة الكونية – ونعني بها الكون – لم يلبث أن شد على رباطها إلى الأبد . فبإمكانه أن يجعلها تعمل حتى الأبد . أما الرجال على هذه الأرض فقد صممهم الإله كأجزاء من آلته الضخمة ليجروا عليها . وإنه ليبدو أنه ليس ثمة ذاعٍ أو فائدة من الصلاة إلى الإله صانع هذه الساعة الكونية ، الذي لا يستطيع – إذا ما أراد – التدخل في شئون عمله " [99] !!

وقد أفضت دراسة الكون والحياة بمعزل عن الخلق – سبحانه – إلى اختلالات علمية كثيرة ، إلى جانب كونها كفرا بالله تعالى شأنه ، من القول بحتمية " قوانين الطبيعة " [100] والقول بالطبيعة الخالقة " التي

94() سورة عبس [17 – 23] .
95() سورة العلق [6 – 7] .
96() سورة المدثر [50 – 51] .
97() سورة النساء [50] .
98() جرين برنتون ، منشأ الفكر الحديث ، ترجمة عبد الرحمن مراد ص 27 .
99() المصدر السابق ص 151 .
100() بما ينفي المعجزة ، وينفي قدرة الله على التصرف في الكون بما يخالف السنة الجارية !

تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق " [101] ! والقول باالخلق الذاتي ، [102] والقول بأزلية المادة وأبديتها .. إلخ .

ولكن الخلل في دراسة الإنسان كان أشد وأبعد أثرا من الخلل في دراسة الكون والحياة ، إذ ترتب عليه سوء فهم في كثير من مجالات النشاط البشري ، وبروز كثير من التفسيرات ما أنزل الله بها من سلطان !

ونضرب مثالا للتقريب ...

لو فرضنا أنه أتيحت لك طاقة كهربائية تستطيع أن تستخدمها في مجالات شتى ، فهل يكون سلوكا " علميا " سليما أن تقول : لا يهمني مصدر هذه الطاقة ، ولن أشغل نفسي بمحاولة التعرف على هذا المصدر . إنما الذي يعنيني هو هذه الطاقة ذاتها ، وطريقة استخدامها ، والمجالات التي يمكن أن تستخدم فيها ؟!

فكيف إذا فاجأتك هذه الطاقة بأمور لا تستطيع تفسيرها ، ومن ثم لا تستطيع أن تستخدمها على الوجه الأمثل ، فمرة تجدها متدفقة ومرة تراها منحسرة بغير سبب ظاهر لك .. مرة تنير ، ومرة تحرق .. مرة تزيد من حيويتك ومرة تعرضك للهلاك ! ألا يعينك التعرف على المصدر ، وطبيعته ، وطريقة تصريفه لهذه الطاقة ، على فهم تلك الظواهر التي لا تفسير لها عندك ، ويعينك ذلك على استخدام تلك الطاقة في أحسن أوضاعها ؟!

ذلك مجرد مثال للتوضيح .. ولله المثل الأعلى . فواجب عبادته سبحانه وتعالى والتعرف عليه لا ينحصر في أنه هو مصدر الوجود البشري وخالقه ، إنما هو إلى جانب ذلك هو المنعم المتفضل . هو الرزاق ذو القوة المتين . هو المدبر لأمر الوجود كله . هو الفعال لما يريد . هو مالك يوم الدين . **(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)** [103] وهو الذي **(يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)** [104] .

ثم إن له سننا تجري في حياة الناس بما يشاء سبحانه ، ليس كلها خاضعا لمنطق العقل البشري ، وإن كان لها حكمتها عند الله ، كالإملاء للكفار والطغاة قبل التدمير عليهم ، وفتح أبواب كل شيء عليهم حين ينسون الله والآخرة نسيانا كاملا ، كما في قوله تعالى :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) [105] .

وقوله تعالى :

(وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) [106] .

101 () هذه قولة داروين .
102 () هذه قولة الملاحدة من " علماء ! " الحياة .
103 () سورة الحديد [3] .
104 () سورة البقرة [28] .
105 () سورة الأنعام [44] .
106 () سورة البقرة [15] .

وقوله تعالى :

(وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) [107] .

وقوله تعالى :

(ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) [108] .

وكتوزيع الأرزاق بين الناس (والمواهب من الرزق) ، وبسط الرزق وقبضه :

(نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً) [109] .

(يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ) [110] .

وكلها أمور تصبح مفهومة حين تعرف حكمتها ، فأما قبل معرفة الحكمة منها فهي تؤدي إلى فهم خاطئ ، وإلى تصور خاطئ يؤدي إلى الظن بعبثية الحياة وعدم خضوعها لنظام ولا تدبير ، مما يؤدي بدوره إلى استهتار بالقيم ، وانفلات من الضوابط .

فإذا لم نتعرف على السنن الربانية التي تحكم حياة الإنسان ، فهل تكون دراستنا " موضوعية " ؟! وهل تكون النتائج التي نحصل عليها نتائج صحيحة من الوجهة العلمية ؟!

ثم إننا حين ندرس الإنسان بمعزل عن خالقه ، وعن السنن الربانية التي تحكم حياته ، فما المعيار الذي نقيس به تصرفاته ؟ وما معيار إنجازاته ؟ من الذي نعتبره مرتفعا راقيا ومن الذي نعتبره منتكسا هابطا ؟ أم الكل سواء ؟! وأي التصرفات نعتبره خيرا وأيها نعتبره شرا ؟ أم لا خير ولا شر ؟! وأي الإنجازات نعتبره صالحا وأيها نعتبره فاسدا ؟ أم يستوي الأمران في الميزان ؟!

من هنا تتخبط النظريات وتتخبط التفاسير التي تحاول أن تفسر السلوك البشري والحياة البشرية ، ما بين مبدأ اللذة والألم ، ومبدأ النفعية ، ومبدأ نسبية القيم ؛ وما بين التفسير المادي للتاريخ ، والتفسير اللبرالي ؛ وما بين الغاية التي تبرر الوسيلة ، واللاغائية ، والعدمية ، والفوضوية ، والوجودية .. وكلها مذاهب ، وكلها تفاسير !!

* * *

إذا جمعنا حصيلة الخللين الأساسيين في التصور الغربي للإنسان ، نجد أن الإنسان في ذلك التصور حيوان متأله ! حيوان بحكم منشئه . متأله بحكم جعله نفسَه حكما مطلقا في كل ما يتعلق به من الأمور : السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والخلقية والفنية .. إلخ . ونجد أن هذا الحيوان المتأله هو موضع الدراسة في جميع الدراسات الاجتماعية

107() سورة الأعراف [183] .
108() سورة الأعراف [95] .
109() سورة الزخرف [32] .
110() سورة القصص [82] .

، سواء علم الاجتماع أو علم الاقتصاد أو علم التاريخ أو علم التربية أو علم النفس ، أو حتى الدراسات الأدبية .. حيوان يعيش بأهداف الحيوان ، ويرفض في الوقت ذاته أن يكون له مرجع يرجع إليه في تصرفاته سوى ما يراه " عقله " أو بالأحرى ما يجري به هواه .

فإذا أضفنا إلى ذلك خللا ثالثا في النظرة الغربية لا يقل خطورة عن الخللين السابقين ، هو دراسة الإنسان كأنه يعيش حياته الدنيا وحدها ، ولا معاد له في الآخرة ، فقد اختلت الموازين تماما ، ولم يبق شيء في الرؤية على وجهه الصحيح !

إن اعتبار الحياة الدنيا هي المبدأ والنهاية يؤثر تأثيرا بالغا في رؤية الإنسان للأشياء ، ليس فقط من الناحية الاعتقادية ، ولكن كذلك من الناحية السلوكية والعملية والعلمية . فحين يكون أمامك منظر متكامل تعرف مبدأه ومنتهاه ، وتستطيع أن تعرف مكان كل جزئية فيه ، ودلالتها في المنظر المتكامل ، ثم تقتطع جزءا من المنظر ، وتقول : يكفيني هذا الجزء ، ولست بحاجة إلى باقيه ! هل يكون سلوكك " عقلانيا " ؟ وهل يكون واقعيا ؟ وهل تحصل على نتائج علمية صحيحة ؟!

إن إدراك الدلالة الخاصة لكل جزئية في الصورة يرتبط ارتباطا وثيقا بالرؤية الشاملة للكل المتكامل المتمثل في الصورة . أما في القطاع الذي تقتطعه – أيا كان حجمه – فكيف تأخذ الجزئية دلالتها ؟ وكيف تتكامل النظرة ؟ فإذا كان الجزء الذي اقتطعته هو الأصغر ، والمتروك هو الأكبر ، فأي خلل يمكن أن ينشأ في الرؤية ، وإلى أي مدى تفقد الجزئيات دلالتها ؟!

والعلوم الاجتماعية التي نشأت وترعرعت في الغرب في ظل الصراع الحاد مع الكنيسة ودين الكنيسة ، فقد ألغت اليوم الآخر من حسابها تماما ، على أنه " غيبيات " لا تخضع للبحث العلمي ، و " ميتافيزيقيا " ضارة ومعوّقة عن التقدم العلمي والعمراني ، فلا ينبغي الاهتمام يها والالتفات إليها ! ونشأ من ذلك اختلال هائل في رؤية القيم والأهداف .

فحين يعيش الإنسان للدنيا وحدها ، ويعتقد أن ما يجنيه فيها من خير أو شر هو الحصية النهائية لجهده ، وألا بعث ولا نشور ولا حساب ولا جزاء في الآخرة ، فكيف تكون قيمه ، وكيف تكون أهدافه ؟

لا جرم يركز على الهدفين الرئيسيين للحيوان : الغلبة في صراع البقاء ، والاستمتاع ، وإن كانت أدواته لتحقيق كل من الهدفين هي أدوات الحيوان المتطور ، أي باستخدام العقل ، واستخدام العدد والآلات .. ومن هنا يبرز مثل هذا الشعار : القوة هي الحق !! (Might is right) ويكون قانون التعامل بين التجمعات البشرية بعضها وبعض هو قانون الغاب : القوي يأكل الضعيف أو ينحيه من الطريق ، بصرف النظر عما هو حق وما هو عدوان . وإن كان الكلام " الحلو " الذي تعلمه الحيوان المتطور حين أتيح لمخه أن يكبر ، يفيض رقة وعذوبة وهو يتكلم عن التعاون الدولي ، وعن الحرية والديمقراطية واحترام حقوق " الآخرين " ! ولا ينفي هذا أن تكون هناك " أخلاقيات " في السياسة والاجتماع ، وعلاقات الناس بعضهم

وبعض في داخل كل تجمع على حدة ، قائم على رابطة الدم أو العصبية القومية ، ولكنها – باعترافهم – أخلاقيات نفعية ، يتواضعون عليها لتقليل الاحتكاك في التجمع الواحد إلى أقصى حد ممكن ، وتوجيه العدوان إلى " الآخرين " ! ثم لينال كل إنسان حظه من الاستمتاع الحيواني بأقل قدر من المنغصات .. وحتى هذه " الأخلاقيات " كما يقول دركايم دائمة التقلب لا تثبت على حال !

إذا جمعنا هذه الاختلالات الثلاثة ، وتأثيرها على الدراسات الاجتماعية في الغرب فماذا نجد في النهاية ؟

وإن هذه الدراسات لا تتحدث عن الحقيقة الشاملة للإنسان ، ولا عن كل حالاته ، إنما تتحدث عن حالة معينة من حالاته ، هي حالة " الجاهلية " التي ينتكس إليها الإنسان حيث يستكبر عن عبادة الله، ويرفض اتباع منهج الله ، فيكون الناس فيها **(كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ)** [111] ويكون الهوى هو المعبود على الحقيقة **(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)** [112] .. ثم يقال هذه هو الإنسان !! وتتأسس على ذلك " علوم " ، وتسمى " العلوم الإنسانية " !!

* * *

الإنسان في التصور الإسلامي كائن مختلف تماما ! لا هو حيوان ولا هو إله ! وإنما هو إنسان !

خلق إنسانا من أول لحظة !

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) [113] .

(إِنَّا خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً) [114] .

وهو في جميع أحواله إنسان ؛ فيه صفات الإنسان مهما علا ومهما سفل . وإنه ليعلو فيكون – في رأي بعض العلماء – أعلى من الملائكة ، وإنه ليسفل حتى يكون – بشهادة خالقه سبحانه – أقل من الحيوان .. ولكنه دائما هو " الإنسان " .

وربما نستطيع أن نفسر هذه الحقيقة إذا رجعنا إلى طبيعة تكوينه : إنه قبضة من طين الأرض ، ونفخة من روح الله . فأما قبضة الطين فهي جسده بكل ما يحويه من نوازع وشهوات . وأما نفخة الروح التي اتحدت بقبضة الطين وامتزجت بها امتزاجا ، فقد جعلت لها ماهية خاصة ، فقد منحتها الوعي والإرادة والحرية ، وأذهبت عنها عتامة الطين ..

الوعي والإرادة والحرية هي الكيان الإنساني .. هي حقيقة الإنسان ، التي تصحبه في جميع حالاته وفي جميع تصرفاته الإرادية ، مهما علا ومهما سفل . فهو يعلو وهو واعٍ مريد ، ويسفل وهو واعٍ مريد ، وله دائما قدر

111() سورة الأعراف [179] .
112() سورة الجاثية [23] .
113() سورة ص [71 – 72] .
114() سورة الإنسان [2] .

من الحرية يعلو به حين يشاء ، ويسفل به حين يشاء ، ولكنه يعلو حين تضيء في كيانه إشراقة الروح فتصله بالله فيزكي نفسه ، ويسفل حين تنطفئ في كيانه تلك الإشراقة الملهمة ، فيتدنى مع ثقلة الشهوات :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) [115] .

ثم إنه له بطبيعة خلقته تلك طريقين اثنين لا طريقا واحدا كالحيوان أو كالملاك . الحيوان طريقه هو الغريزة الحيوانية التي ترسم له أعماله وتحدد له تصرفاته فلا يملك أن يخالفها ، والملك طريقه هو الغريزة النورانية الشفيفة ، إن جاز لنا أن نسميها غريزة : غريزة الطاعة الخالصة لله ، والعبادة الخالصة لله :

(يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ) [116] .

(لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) [117] .

أما الإنسان فهو في كل لحظة من لحظاته على مفرق طريق : على رأس طريقين ، أحدهما طاعة الله والآخر طاعة الشيطان الذي يحرض على معصية الله . وفي كل لحظة من لحظاته يستمع إلى أحد الندائين فيتجه إليه ، ويصم سمعه عن النداء الآخر . يستمع إلى النداء الرباني المنزل على الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم ، فيعبد ، ويطيع ، ويصم أذنه عن نداء الشيطان . أو يستمع إلى نداء الشيطان ، فيتجه إليه ، ويصم أذنه عن النداء الرباني ، ولكن على صورتين مختلفتين في المدى والعمق والنية المصاحبة . إما غفلة مؤقتة عن النداء الرباني ، تتبعها الصحوة ، والاستغفار والتوبة ، وذلك شأن المؤمنين ، وإما غفلة كاملة عن النداء الرباني ، وانصياع كامل واعٍ لنداء الشيطان ، وهو الكفر والعياذ بالله .

فأما الأولون فلا يخرجون من رحمة الله سواء عاقبهم على غفلتهم العارضة أو شملهم بعفوه . أولئك يقول الله عنهم :

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ، أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) [118] .

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً) [119] .

115() سورة الشمس [7 – 10] .
116() سورة الأنبياء [20] .
117() سورة التحريم [6] .
118() سورة آل عمران [135 – 136] .
119() سورة النساء [17] .

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [120] .

وأما الآخرون فيقول الله لهم :

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ، وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ، هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ، اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) [121] .

ومن كون الإنسان له طريقان لا طريق واحد ، وله القدرة على التمييز بين الطريقين ، والقدرة على اختيار أحد الطريقين وجد الخير والشر في حياة الإنسان ، ووجدت القيمة الخلقية المصاحبة للعمل .

كل عمل يعمله الإنسان بوعيه وإرادته له قيمة خلقية لاصقة به ، فيوصف بأنه خير أو شر . وليست هذه القيمة الخلقية مفروضة عليه من خارج كيانه كما يزعم علم الاجتماع الجاهلي [122] ، أو علم النفس الجاهلي [123] . إنها نابعة من تكوين الإنسان ذاته . من كون أن له طريقين ، وله القدرة على التمييز بين الطريقين واختيار أحد الطريقين .

فالحيوان لا توصف أعماله بأنها خير أو شر ، لأنه لا خيار له فيها ، وليس له إلا طريق واحد يسلكه بدافع الغريزة ، ولا يملك غيره , أما الإنسان الذي يميز بين طريقين ويختار أحدهما بإرادته فإن أعماله الإرادية لا بد أن توصف بأنها خير أو شر ، ولا يمكن فصل أعماله عن القيمة الأخلاقية المصاحبة لها .

إنما " المعايير الخلقية " هي التي يمكن أن تفرض من خارج الكيان الفردي .. المعايير التي تحدد أن عملا بعينه يعتبر خيرا وأن عملا آخر يعتبر شرا . وهذه هي التي يختلف الناس في تقديرها حسب مصدر التلقي الذي يتلقون منه القيم والمعايير . أما أن يزعم زاعم – كما يزعم بعض " علماء الغرب – أن الإنسان ليس كائنا أخلاقيا في ذاته ، إنما تفرض عليه القيم الأخلاقية من خارج كيانه ، فهذا زعم تفردت به الجاهلية المعاصرة من بين كل جاهليات التاريخ !

أما السلطة التي تقرر المعايير – ولا بد من سلطة تقرر – فتقول هذا خير وهذا شر . هذا حسن وهذا قبيح . هذا مباح وهذا غير مباح – هذه السلطة عند المؤمن هي الله سبحانه وتعالى ، الذي له الأمر بمقتضى أنه هو الخالق :

(أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) [124] .

120() سورة الأنعام [54] .
121() سورة يس [60 – 64] .
122() انظر دوركايم .
123() انظر فرويد .
124() سورة الأعراف [54] .

أما عند الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر فالسلطة التي تقرر المعايير هي سلطة بشرية لا ترجع في تقديراتها إلى الله ، سواء كانت هي الدولة أو المجتمع أو " الطبقة المستغلة " .. أو الهوى والشهوات ! وهي في جميع أحوالها سلطة جاهلية لأنها تحكم في الأمور بغير ما أنزل الله .

* * *

هذا الإنسان – بخصائصه تلك – خلق لغاية :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [125] .

والعبادة – بوصفها خلقا أو طبيعة أو سلوكا أو توجها – عميقة الجذور في الفطرة البشرية :

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا) [126] .

(فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) [127] .

ولكن الفطرة تستقيم أحيانا وتعتل أحيانا ، فتستقيم العبادة تبعا لذلك أو تعتل . فأما أصحاب الفطرة السوية فيعبدون الله وحده بلا شريك ، لأنه وحده الحقيق بالعبادة ، وأما أصحاب الفطر المعتلة فيعبدون آلهة أخرى ، مع الله أو من دونه سواء .. ويكون معبودهم الحقيقي هو الشيطان .

وكون العبادة من الفطرة ، تصح مع صحتها وتنحرف مع مرضها ، كان بديهية واضحة في حياة البشرية ، حتى جاءت الجاهلية المعاصرة فزعمت – لأول مرة في التاريخ – أن العبادة ليست أصلا ثابتا في كيان الإنسان ، إنما هي حالة مرت بالبشرية في طور من أطوارها ثم " برئت " منها ، حين أدت مهمتها واستنفدت أغراضها .. و " تحرر " الإنسان من " الدين " [128] !

أي عبادة للشيطان أشد من هذه العبادة ؟!

إن " المعبودات " اليوم لا تكاد تحصى ! فهي أحيانا " الدولة " وأحيانا " الوطن " وأحيانا " القومية " وأحيانا " النظام " وأحيانا " الزعيم الأوحد " وأحيانا " المصلحة القومية " وأحيانا " الرأي العام " – المحلي أو العالمي – وأحيانا " الإنتاج " وأحيانا " العقل " وأحيانا " العلم " وأحيانا " التقدم " وأحيانا " الموضة " .. كلها معبودات ترسم للناس مناهج حياتهم فيعمل الناس بوحيها وأمرها في الوقت الذي يعصون فيه أوامر الله ، ويستكبرون عن عبادة الله !

125() سورة الذاريات [56] .
126() سورة الأعراف [172] .
127() سورة الروم [30] .
128() يقول دوركايم في كتابه " قواعد المنهج في علم الاجتماع " : كان المظنون أن الدين والزواج والأسرة أشياء في الفطرة ولكن التاريخ يطلعنا على أنها ليست فطرية في الإنسان !

وحين يخيل لإنسان ما في لحظة ما أنه متحرر تماما من كل عبادة ، ليس لأحد ولا لشيء عليه سلطان .. ففي تلك اللحظة ذاتها يكون غارقا في العبادة حتى أذنيه .. عبادة الهوى والشهوات :

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) [129] .

كلا ! إن العبادة جزء من الفطرة ، كامن في أعماقها .. تستقيم الفطرة فتستقيم العبادة ، وتعتل فتعتل معها العبادة ، وتتشتت في اتجاهات مختلفة :

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) [130] .

* * *

والعبادة – الصحيحة – هي كما يقول ابن تيمية رحمه الله : اسم شامل لكل ما يحبه الله ويرضاه . وقد فصلتها الكتب المنزلة من عند الله ، ثم أخذت صورتها الأخيرة الكاملة الشاملة في الرسالة الخاتمة المنزلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً) [131] .

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ) [132] .

وهي تشمل عدة أمور ، تضم في إطارها جملة الحياة :

(قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ..) [133] .

تشمل الاعتقاد اليقيني الجازم بأن الله واحد لا شريك له ، متفرد في أسمائه وصفاته وأفعاله .

وتشمل توجيه العبادة – بكل أنواعها – لله وحده بلا شريك ، سواء كانت العبادة صلاة أو نسكا أو دعاء أو استعانة أو ذبحا أو نذرا أو موالاة أو معاداة أو موادّة أو مباغضة .

وتشمل التحاكم إلى شريعة الله وحدها دون غيرها من الشرائع .

وتشمل عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني الذي يحدد الحلال والحرام ، والمباح وغير المباح ، والحسن والقبيح .

وتشمل الأخلاق والأفكار والمشاعر والسلوكيات التي يحبها الله .

129() سورة الجاثية [23] .
130() سورة الأنعام [153] .
131() سورة المائدة [3] .
132() سورة المائدة [48] .
133() سورة الأنعام [162 – 163] .

وكلها – في المنهج الرباني – داخلة في مقتضيات لا إله إلا الله ، التي تشمل الصلاة والنسك والمحيا والممات ، وتوجهها كلها لرب العالمين [134] .. وإن كانت المخالفة عن أمر الله فيها لا تندرج كلها تحت حكم واحد ، فمنها ما هو مخرج من الملة ، كشرك الاعتقاد ، وشرك العبادة ، وشرك التحاكم – عن إرادة ورضى – إلى غير شريعة الله . ومنها ما يكون نقصا في الإيمان ولكنه لا ينقض أصل الإيمان .

والعبادة بهذا المعيار منهج حياة كامل ، يشمل في أطوائه كل نشاط الإنسان .. يشمل السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق والفكر والفن .. كما يشمل علاقة الإنسان بربه وعلاقته بالبشر من حوله ، وعلاقته بالكون والحياة . فأما الذين استقاموا على الهدى فهم يستمدون من المنهج الرباني منهج حياتهم ، في الصغيرة وفي الكبيرة . وأما الذين أبوا واستكبروا فحياتهم نهب للشياطين :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) [135] .

و " الإنسان " في أي وضع من أوضاعه هو أحد اثنين لا ثالث لهما – أيا كان جنسه ولونه ولغته وثقافته ومبلغه من " العلم " ومبلغه من الحضارة ومبلغه من الثروة ومبلغه من القوة – فهو إما ذلك الذي يستمد منهج حياته من المنهج الرباني ، وإما ذلك الذي يستنكف أن يأخذ عن الله منهج حياته ، ويستكبر عن عبادة الله :

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [136] .

ولا يعني هذا التقسيم " المبدئي " أنه لا توجد تقسيمات أخرى ومفاضلات أخرى بين البشر .

فلا المؤمنون كلهم نوعية واحدة ودرجة واحدة ، ولا الكافرون كذلك .

يقول تعالى عن المؤمنين :

(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) [137] .

(لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً) [138] .

134 () اقرأ إن شئت " مقتضيات لا إله إلا الله في الرسالة المحمدية " من كتاب " لا إله إلا الله " .

135 () سورة البقرة [208] .

136 () سورة التغابن [2] .

137 () سورة فاطر [32] .

138 () سورة النساء [95] .

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) [139] .

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا) [140] .

" المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف . وفي كل خير " [141] .

والكفار جميعا ملعونون ولكنهم كذلك درجات ، بعضهم أشد كفرا من بعض . ومنهم من هو في ضحضاح من النار ومنهم من هو في الدرك الأسفل من النار . وفي الدنيا كذلك فيهم خيار وفيهم دون ذلك .

ولكنهم كلهم بشر ، فيهم الخصائص الرئيسية للإنسان : فيهم الوعي والإرادة والحرية ، ويفترقون في إشراقة الروح ، فهي عند المؤمن عنصر فعال يرفعه إلى أعلى ويزكي نفسه ، وعند الكافر عنصر مطموس لا يعمل ، فتهبط به ثقلة الطين .

* * *

وهذا الإنسان الذي زوده الله بهذه الخصائص : الوعي والإرادة والحرية – ليس مخلوقا عبثا ، وليس متروكا سدى . إنما هو مسئول .. مسئول في الدنيا والآخرة ، مقابل هذه الخصائص التي أعطيت له :

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ) [142] .

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً) [143] .

كلا ! إنه مسئول عن كل تصرف يتصرفه في الحياة الدنيا بوعيه وإرادته وحريته .

وتتمثل مسئوليته في أنه مفطور على حب الاستمتاع ، وأن المتاع موجود في الحياة الدنيا ومتاح ، ولكن الله رسم له حدوداً معينة (هي التي يعلم سبحانه أنه يتحقق بها الخير في الحياة الدنيا) ووضَعَ الإنسانَ مقابل ذلك المتاع .. للابتلاء – بمعنى الاختبار – وجعل موضوع الاختبار هو : ماذا يأخذ من متاع الدنيا وماذا يدع . وما الطريقة التي يأخذ بها ما يأخذ ويدع بها ما يدع . والمحك هو الالتزام بحدود الله أو تجاوز الحدود :

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً) [144] .

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) [145] .

139() سورة الحجرات [13] .
140() سورة الأنعام [132] .
141() أخرجه مسلم .
142() سورة المؤمنون [115] .
143() سورة القيامة [36] .
144() سورة الإنسان [2] .
145() سورة الكهف [7] .

(وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) [146] .

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) [147] .

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا) [148] .

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا) [149] .

ومقابل الالتزام جنة عرضها السموات والأرض . ومقابل التجاوز عذاب لا يقف عند حد .

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ) [150] .

والإنسان في ذلك جزء من بنية هذا الكون الهائل العظيم ، الذي خلقه الله بالحق . ولا يتم هذا الحق بالنسبة للإنسان حتى يحاسب في اليوم الآخر عما فعله في الحياة الدنيا ويأخذ جزاءه عليه إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) [151] .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) [152] .

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [153] .

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) [154] .

[146] سورة البقرة [36] .
[147] سورة آل عمران [14] .
[148] سورة البقرة [229] .
[149] سورة البقرة [187] .
[150] سورة النساء [13 – 14] .
[151] سورة يونس [4] .
[152] سورة ص [27] .
[153] سورة آل عمران [190 – 191] .
[154] سورة الأنبياء [47] .

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ) [155] .

ومن ثم فليس الإنسان حرا يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل . فذلك شأن الإله سبحانه وتعالى ، والإنسان ليس إلها :

(.. إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) [156] .

(لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) [157] .

وكذلك ليس ساقطا عنه التكليف كالحيوان ، لأنه ليس حيوانا . ولا هو مقهور على التصرف بطريقة معينة كالكون المادي .. إنما هو " إنسان " ذو وعي وإرادة وحرية في نطاق معين . وعلى قدر هذا النطاق يسأل عما يفعل ، ويجازى عليه .

(فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ، فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ، وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ) [158] .

* * *

ما النطاق المتاح للإنسان ؟!

إنه النطاق المتناسب مع وظيفته :

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [159] .

وهذا الخليفة مكلف بعمارة الأرض :

(هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) [160] .

ومزود بالأدوات التي تعينه على عمله ، ومسخّرة له المواد التي يحتاج إليها فـي العمل :

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [161] .

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ) [162] .

ولكنه مكلف – في عمارته للأرض – أن يعمرها بمقتضى المنهج الرباني :

155 () سورة الزلزلة [7 – 8] .
156 () سورة الحج [14] .
157 () سورة الأنبياء [23] .
158 () سورة الأعراف [6 – 9] .
159 () سورة البقرة [30] .
160 () سورة هود [61] .
161 () سورة النحل [78] .
162 () سورة الجاثية [13] .

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [163] .

في هذا النطاق منح الحرية التي تقابلها المسئولية .

فهو يملك أن يعمّر الأرض بمقتضى المنهج الرباني إذا شاء والتزم ، ويستطيع كذلك أن يعمرها بمناهج من عند نفسه يخالف بها أمر الله إذا شاء ألا يلتزم . ولكن لا تجري الأمور في الحالتين على صورة واحدة – وإن تشابهت أحيانا – إنما تختلف النتائج في الدنيا وفي الآخرة على السواء ، بمقتضى سنن لا يملك الإنسان أمرها ، إنما هي سنن إلهية ، الله هو الذي قررها وقدرها ، وهو الذي يجريها بمشيئته في حياة الإنسان ، ولا يملك الإنسان إزاءها إلا الإذعان ، وإن كابر وزعم أنه إله !

وبين حرية الاختيار وحتمية السنن التي لا تتبدل ولا تتحول تسير الحياة البشرية في مجراها الذي قدره الله ، إلى أن يرث الله الأرض وما عليها .

* * *

في عمارة الأرض يحتاج الإنسان إلى السمع والأبصار والأفئدة .

السمع والأبصار والحواس جميعا هي أدواته للتعرف على ما حوله ، والتعرف على الكون المادي ، وعلى خصائص المادة التي سيستخدمها في عمارة الأرض .. وهو يستخدمها بجهد يبذله – مكتوب عليه في قدر الله ..

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ فِي كَبَدٍ) [164] .

(يَا أَيُّهَا الْأِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ) [165] .

فبغير الجهد لا يصل إل شيء ، لأنه ليس إلها يقول للشيء كن فيكون ، إنما هو " إنسان " له قدرة ممنوحة له من عند الله ، ولكنها قدرة محدودة بالقياس إلى القدرة التي لا تحد .. قدرة الخالق العظيم التي لا يعجزها شيء في السموات ولا في الأرض .

وهو حري أن يعرف حدود قدرته تلك لكيلا يطغى بها على الخلق ، ولا يتمر بها على سلطان الله ، بدلا من أن يشكر المنعم الوهاب الذي منحه ما منحه من القدرات والخيرات :

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) [166] .

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْأِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) [167] .

163 () سورة البقرة [38 – 39] .
164 () سورة البلد [4] .
165 () سورة الانشقاق [6] .
166 () سورة النحل [53] .
167 () سورة إبراهيم [34] .

ولكن السمع والأبصار ، وما تؤدي إليه من الإدراك الحسّي ، وما ينشأ عن ذلك من "" علم " ، وما يؤدي إليه ذلك العلم من عمل في عمارة الأرض .. كل ذلك لا يفي بتحقيق ما خلق الله الإنسان من أجله :

(كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ) [168] .

لا بد مع السمع والأبصار من " الأفئدة " التي وهبها الله للإنسان لتحقيق غاية معينة ، لا يتم تحقيق غاية وجوده إلا إذا أداها .

الأفئدة هي الأداة التي تصل الإنسان بالله ، يحبه ويخشاه ، ويتطلع إليه في كل خطوة ، ويدهوه ويستغفره ويتوب إليه ، ويستمد منه العون ، ويطلب منه التوفيق :

(وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ) [169] .

وهي الأداة العظمى في العمارة الحقيقية للأرض . فليست العمارة المادية وحدها هي المطلوبة من الإنسان في الأرض ، إنما هي عمارة " القيم " التي تحقق ما سخر الله للإنسان من طاقات السموات والأرض بحيث يجري الأمر فيها حسب المنهج الرباني الذي أنزله الله لعمارة الحياة الدنيا ، وجعل جزاءه النعيم الخالد في الآخرة .

وهذه القيم ، وهذه العمارة القائمة على القيم هي المهمة الحقيقية للإنسان ، التي بدونها لا يكون قد عمل شيئا في الحقيقة ، ويكون عمله كبناء أقيم على جرف هار :

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [170]

من أجل ذلك يقول الله عن الذين يعطلون هذه الأداة الضخمة أنهم يلغون حتى سمعهم وأبصارهم ، لا لأنها لا تدرك الإدراك الحسي ، ولكن لأنها غافلة عن دلالة ما تسمع وما ترى فكأنها غير موجودة ما دامت لا تؤدي مهمتها :

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُـمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) [171] .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ، وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ) [172] .

* * *

168() سورة عبس [23] .
169() سورة الإسراء [57] .
170() سورة التوبة [109] .
171() سورة الأعراف [179] .
172() سورة الأنعام [112 – 113] .

يقوم الإنسان بعمارة الأرض مدفوعا بدوافع كامنة في الفطرة .. أوجدها فيها الخالق الذي كلفه بتلك العمارة وأعانه عليها ، وأمده بالأدوات اللازمة للقيام بها .. فما معيار إنجازاته في عمارة الأرض ؟

لكل عمل يعمله درجة ، والنجاح والفشل مرهون بمجموع الدرجات .

نعم .. ولكن !

في المنهج الرباني " مادة رسوب " – إذا استعرنا الاصطلاح – يعتبر الإنسان راسباً إذا رسب فيها ، ولو حصل على النهاية العظمى في سائر المواد ! تلك المادة هي الإيمان بالله واليوم الآخر ! .

إن استغلال الحواس مطلوب . واستخدام العقل مطلوب . وتسخير الطاقات التي أودعها الله في السموات والأرض مطلوب . والتحسين والتجميل والتكميل مطلوب [173] . وبذل الجهد – العضلي والعقلي – لتحقيق ذلك كله مطلوب . وكله ينال الإنسان عليه درجات بمقدار ما يبذل من الجهد .. ولكن هذا كله لا يضمن النجاح – في المنهاج الرباني – بغير الإيمان بالله واليوم الآخر .. ويعتبر الإنسان راسبا إذا رسب في هذه المادة الرئيسية !

وهنا مفرق الطريق بين مفهوم الإسلام ومفاهيم الجاهلية !

إن الجاهلية تعتبر أن النجاح في العمارة المادية للأرض . في اكتساب القوة والتمكن . في الغلبة والسيطرة . في استخخدام العقل والحواس ، ثم في الاستمتاع بمتاع الأرض .. هو قمة النجاح الذي لا يحتاج الإنسان معه إلى شيء ، ولا يحتاج بعده إلى شيء ..

وكان يمكن أن يكون هذا معيارا صحيحا لو أن الإنسان هو الإله ! هو الذي يقدر المقادير ، وهو الذي يقرر لنفسه مبدأه ومنتهاه ، ومشيئته هي النافذة في الكون وفي الحياة !

فهل هو بالفعل كذلك ؟!

فما باله " عاجزا " في أمور لا تحصى ، تزيد عددا ومدى وأثرا عن كل ما يعتبر نفسه " قادرا " عليه ، حتى لو ظن – في غفلته – أن قدرته فيما هو قادر عليه هي من عند نفسه وليست من عند الله :

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي) [174] .

(فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ) [175] .

ما بال علمه قاصرا حتى عن الإحاطة بكل ما تشمله نقطة صغيرة في فضاء الكون – هي الكوكب الذي يعيش فيه – والكون فيه من أمثالها الملايين ، ومن أضعاف أضعافها الملايين ، بل ملايين الملايين ؟

173() سنتكلم عن هذه النقطة فيما بعد .
174() سورة القصص [78] .
175() سورة الزمر [49] .

ما باله عاجزا عن علم الغيب .. لا غيب السنوات القادمات بل غيب الغد القريب ، بل غيب اللحظة التي بدأت منذ لحظة ولما تنته بعد ؟!

بل ما باله في لحظات الضيق ينسى قدرته المزعومة ويلجأ إلى القوة الحقيقية التي تملك كل شيء :

(وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً) [176] .

بل ما باله يقف عاجزا أمام ما يسميه " كوارث الطبيعة " من زلزال مدمر ، أو إعصار كاسح ، أو فيضان هادر ؟ .

بل ما باله لا يملك حتى الهواء الذي يتنفسه ، وحتى الماء الذي يشربه ؟

(أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ) [177] .

فإذا كان هذا هو الإنسان في حقيقته ، فما قيمة انتفاشته الفارغة حين يقول : أنا أقرر لنفسي المعيار ؟! أو حين يقول : لقد شب الإنسان عن الطوق ، ولم يعد في حاجة إلى وصاية الله !!

وما قيمة أن تقوم " علوم " تجعل معيار النجاح هو ذلك المعيار الجاهلي ، سواء كانت اقتصادا أو اجتماعا أو تاريخا او تربية أو علم نفس ، و تغفل " مادة الرسوب " ، وهي المادة التي لا ينجح في ميزان الله من رسب فيها ولو ملك كل ما في الأرض ومثله معه ، بينما الميزان في يد الله سبحانه وتعالى وليس في يد الإنسان ؟!

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً) [178] .

(مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ) [179] .

(أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً) [180] .

أما أنهم ينجحون في الدنيا .. فنعم ! حين يبذلون الجهد اللازم ويتخذون الأسباب ! ولكن لولا أن الله كتب لهم النجاح بهذه الأسباب – لحكمة يريدها – ما نجحوا من تلقاء أنفسهم ، لأن الأسباب لا تفعل من ذات نفسها ولكن بتقدير الله لها ، ويجري النجاح بها بسنة مقدرة من عند الله :

176() سورة الإسراء [67] .
177() سورة الملك [21] .
178() سورة الفرقان [23] .
179() سورة إبراهيم [18] .
180() سورة الكهف [105] .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [181] .

بل أكثر من ذلك !

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ، فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [182] .

فليس النجاح – في الدنيا – بهذه الأسباب حتمية لا بد أن تتحقق بالجهد البشري ! إنما هو أمر قدره الله لحكمة يريدها ، وإذ شاء سبحانه ألا يقع النجاح فإنه لا يقع ، ولو اتخذت الأسباب . وما أمر فرعون بمجهول في التاريخ البعيد ، وما أمر هتلر بمجهول في التاريخ القريب !! كل منهما اتخذ من الأسباب ما يفوق التصور ، وكل منهما باء بالفشل الذريع ، فغرق أحدهما في اليم ، وانتحر الآخر مغلوبا على أمره وهو على قيد خطوة من الوصول !

* * *

من جهة أخرى فإن مجرد النجاح في " مادة الرسوب " لا يضمن النجاح في الحياة الدنيا إذا لم يحصّل الإنسان درجات النجاح في بقية المواد ! وهي تكليف رباني ، يعتبر " الإنسان المؤمن " مقصرا إذا لم يقم به ، ويعتبر عدم القيام به نقصا في إيمانه في ميزان الله ، ويعاقب الله الإنسان إذا لم يقم به بشتى أنواع العقاب .

خذ مثالا لذلك هذا التكليف الرباني للأمة المسلمة :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) [183] .

كم يشمل هذا التكليف – المفرد في ظاهره – من التكاليف المتضمنة في أطوائه ؟

هل يمكن إعداد القوة بغير جهد يبذل في صنع السلاح والتدريب عليه ؟

وهل يمكن صنع السلاح بغير علم وعمل ؟ علم بالفيزياء والكيمياء وفنون الصناعة المختلفة (التكنولوجيا) وعمل في إقامة المصانع ، وإعداد المهندسين الذين يقومون بإنشائها وتركيب الآلات فيها وصيانتها والإشراف على الإنتاج فيها ، ومتابعة ما يجد في العالم من تقنيات (وخاصة عند العدو) والمحاولة الدائمة للابتكار والتفوق ؟

181 سورة هود [15 – 16] .
182 سورة الأنعام [44 – 45] .
183 سورة الأنفال [60] .

وهل يمكن التدريب بغير إعداد مدربين متمكنين من العلم وفي الوقت ذاته يملكون الصدق والإخلاص اللازمين ، أي من الذين تربوا تربية روحية جهادية على يد مربين نذروا أنفسهم لإعلاء كلمة الله .

وهل يمكن إنتاج السلاح والتدريب عليه (وهو معنى إعداد العدة) بغير مال وفير ينفق في هذا الشأن (وهو ما أشارت إليه الآية إشارة واضحة في قوله تعالى : **(وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ) ؟**

وهل يمكن توفير المال بالقدر المطلوب ما لم تكن الأمة – في مجموعها – عاملة مجتهدة منتجة ، وفي الوقت ذاته مقتصدة غير مسرفة ، أي أنها تنتج كثيرا وتستهلك قليلا ، لكي يتوفر الفائض الذي ينفق في إعداد العدة ؟ .

وهكذا نرى أن هذا التكليف الرباني – المفرد في ظاهره – قد حوى من التكاليف ما يشكل منهجا كاملا لحياة أمة بأكملها يشمل كل فرد فيها ، إما بفرض عين أو فرض كفاية ، ويشمل مساحة واسعة من العلم والعمل ، وتأثم الأمة في مجموعها إن لم يقم القادرون من أفرادها بأداء ما يجب عليهم أداؤه ، وتعاقب الأمة – في مجموعها – في الحياة الدنيا بغلبة أعدائها عليها ، وفي الآخرة ينال كلٌّ نصيبه من الحساب بحسب موقعه وقدرته : أولياء الأمور أولا ثم عامة الناس ..

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) [184] .

إن المعايير الربانية جادة كل الجد ، محكمة ، دقيقة ، حاسمة . إنها ليست شيئا هلاميا لا قوام له ، ولا شيئا رجراجا لا تثبت له صورة محددة ، ولا هي مجرد شعارات ترفع ، ولا أماني يصوغها الخيال كما يتصور الجاهليون عما يسمونه " المعايير الدينية ! " ولا هي كذلك تجامل الناس لمجرد قولهم – أو ظنهم – أنهم مؤمنون صادقو الإيمان ما لم يحققوا تكاليف الإيمان التي فرضها الله عليهم . والذين يظنون – من الجاهليين – أنهم هم البارعون ، وهم الواقعيون ، وهم العمليون ، لأنهم يحددون أهدافهم تحديدا واضحا ، ويتخذون الأسباب الواقعية العملية التي تحقق أهدافهم بعيدا عن " مثاليات " الدين ، هؤلاء لم يتعرفوا على حقيقة المعايير الربانية ، ولم يدرسوا السنن الربانية دراسة " علمية " واعية ، ليعرفوا أنها لا تغفل اتخاذ الأسباب ، ولا تكل الناس إلى المشاعر والوجدانات ، والأماني الفارغات ، إنما تتطلب منهم جهدا حقيقيا في عالم الواقع .. غير أنها تفترق عن معايير الجاهليين فـي أمرين رئيسيين :

الأمر الأول : هو تحديد غاية الوجود الإنساني ، التي يتخذ الإنسان الأسباب لتحقيقها ، ومن ثم الالتزام بالأسباب التي تتواءم مع هذه الغاية ولا تصادمها .

فالنجاح – الأرضي – بالغش والكذب والخديعة والنفاق والمداهنة – وهو ما تدعوا إليه الميكيافيللية صراحة وتطبقه بلا تحرج في معظم

184() سورة الأنفال [25] .

معاملاتها – لا يعتبر بالمعايير الربانية نجاحا يتفق مع غاية الوجود الإنساني الذي رفعه الله وكرّمه :

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) [185] .

وإن من التكريم أن تكون وسائل الإنسان في تحقيق ذاته وتحقيق غاية وجوده غير وسائل الحيوان التي يستخدمها في صراع البقاء ، وفي الاستمتاع . وحين يطبق البشر في حياتهم قانون الغاب ، و " ينجحون " على أساسه في تحقيق ذواتهم ، أو " يستمتعون " على طريقة الحيوان ، ويتجاوزون الحد في المتاع الحسي ، فما الفرق إذاً بينهم وبين الوحوش الضاربة ، أو بينهم وبين السائمة ، وأين منهم شرف الانتماء إلى آدم الذي أسجد الله له الملائكة :

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ..) [186] .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ..) [187] .

لقد خلق الله الإنسان لأهداف أخرى غير التي خلق الحيوان من أجلها . ولم يكن خلقه مجرد إضافة حيوان جديد إلى قائمة الحيوان ، إنما كان إيجاد جنس آخر من الخلق ، خلقه الله بقدرته ، ليعبد الله على وعي ، ويعمر الأرض بمقتضى المنهج الرباني . ومن أجل هذه الغاية وهب له ما وهب من المزايا ، وأنزل الكتب لهدايته على أيدي الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم . وكان من أهداف إرسال الرسل وإنزال الكتب أن يقوم الناس بالقسط :

(لَقَـدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) [188] .

فأنّى يتحقق القسط بين الناس حين يطبقون فـي حياتهم قانون الغاب الذي وضع للحيوان ؟!

وليس القسط مجرد شعارات ، ولا " مثاليات " غير قابلة للتطبيق ، يتجافاها " الواقعيون " من الجاهليين ليصلوا إلى " النجاح " ! إنما هو واقع قابل للتطبيق ، وطبقته الأمة المسلمة عدة قرون في واقع الأرض ، على الرغم من كل ما أصابها من انحراف في أثناء مسيرتها التاريخية ، وكانت " ناجحة " بكل المقاييس ، وفي جميع الميادين ، ولكن على المستوى اللائق بالإنسان ، سواء في معاملة " الآخر " الذي لا يؤمن بالإسلام وبمبادئه [189] ، أو في نظافة المجتمع من الفاحشة ، أو في الخدمات

185() سورة الإسراء [70] .
186() سورة البقرة [34] .
187() سورة محمد [12] .
188() سورة الحديد [25] .
189() يشهد التاريخ أن معاملة المسلمين لغير المسلمين في البلاد المفتوحة كانت مثالا رائعا من التسامح لا مثيل له في التاريخ ، ويتضح مدى نبله بالمقارنة مع وضع

الإنسانية التي تقدم للناس ، أو في التعاون على البر والتقوى ، أو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

إن التمكن في الأرض – على هذا المستوى – أمر مطلوب ، ومنّة يمن الله بها على المؤمنين حين يتبعون منهجه :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً) [190] .

وهو يحقق للناس كل ما يصبون إليه من " النجاح " في واقع الأرض ، ولكن في طهارة من الدنس ، وترفع عن مستوى الحيوان ..

أما الأمر الثاني الذي تفترق فيه المعايير الربانية عن المعايير الجاهلية ، فهو مدّ الوعي بالوجود الإنساني إلى ما وراء الحياة الدنيا القصيرة الفانية إلى الحياة الخالدة الباقية ، لا لإيجاد معيارين مختلفين يتردد الإنسان بينهما ، مرة هنا ومرة هناك ، ولكن لتثبيت المعيار الأول وتمتينه وتمكينه ، وجعله أكثر فاعلية في حياة الإنسان . فالمعيار الأول ، الخاص بالنجاح والتمكين في الحياة الدنيا بمقتضى المنهج الرباني ، هو ذاته الذي يوصل الناس إلى الآخرة سالمين غانمين مستحقين لرضوان الله . ولا يحتاج الأمر إلى إضافة شيء خاص – لا تصلح به الحياة الدنيا – ولا إلى حذف شيء معين مما تصلح به الحياة الدنيا حسب المنهج الرباني . فحسب الإنسان أن ينشط في الدنيا بعمله وعمله ، ومجاله الفردي ومجاله الأسري ومجاله الاجتماعي ومجاله البشري ملتزما بما أنزل الله ، متوجها بعمله ومشاعره إلى الله ، ليستحق عند الله نعيم الآخرة . فإن تكن إضافةٌ بالتطوع النبيل بما لم يفرضه الله فرضا ، أو الزهد النبيل في شيء لم يفرض الله الزهد فيه ، فهذا رفع للدرجات عند الله ، ولكنه ليس شرطا للأمن والكرامة يوم القيامة .

وإن الصورة المريضة التي تعيشها الأمة اليوم ، ويتخذها الجاهليون المعاصرون حجة لنبذ المعايير الربانية واتخاذ معايير الجاهلية الأوربية ، ليست من الإسلام ، ولا تحسب على الإسلام ، ولا يحتج بها على الإسلام . إنما هي انحراف لتسأل عنه الأمة في الحياة الدنيا ويوم تقوم بين يدي مولاها :

(وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلونَ) [191] .

إنما الصورة السليمة التي عاشتها الأمة بالإسلام قرونا متوالية هي المرجع ، وهي المحك لواقعية المعايير الربانية ، وأنها ليست مُثُلاً معلقة في الفضاء غير قابلة للتطبيق ، كما يزعم الذين انحطت عزائمهم عن الرفعة التي أرادها الله للإنسان ، فأخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهواءهم ، وأبوا الاحتكام إلى ما أنزل الله ، ثم زعموا أنهم هم الفائزون !

الأقليات الإسلامية التي تقع تحت سيطرة اليهود والنصارى والمشركين عامة .

190() سورة النور [55] .

191() سورة الزخرف [44] .

(لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) [192] .

على أن الخسارة ليست واقعة في الدار الآخرة وحدها ! فالوضع المضطرب الذي تعيشه البشرية اليوم في مختلف أرجاء الأرض ، هو شهادة الواقع على مدى صلاحية المعايير الجاهلية المجافية للمنهج الرباني لقيادة البشرية إلى النجاح الحقيقي ، الذي يستمتع فيه الإنسان بالحياة .

وانظر فقط إلى نسبة الأمراض النفسية والعصبية والقلق والجنون والانتحار والخمر والمخدرات والجريمة .. والفزع الدائم من الأزمات ، سواء السياسية أو الحربية أو الاجتماعية أو الاقتصادية .. واسأل نفسك هل أدى التقدم العلمي والتكنولوجي وظيفته التي كان قمينا أن يقوم بها في ظل المنهج الرباني ، يوم يقوم الناس بالقسط ؟!

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) [193] .

* * *

هذا التصور الإسلامي للإنسان ، المستمد من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، قد برئ من الاختلالات الرئيسية الثلاثة التي وقع فيها التصور الغربي . فلا هو يتعامل مع الإنسان على أنه حيوان متطور ، ولا على أنه إله ، ولا على أنه يعيش حياته الدنيا منقطعة عن الآخرة .

والعلوم الاجتماعية التي تدرس أحوال الإنسان مستندة إلى هذا التصور ومستمِدَّة منه ، لا بد أن تختلف اختلافا جذريا في المنطلق وفي الغاية ، عن العلوم التي تستمد من التصور الغربي ، ولو التقت معها في بعض الجزئيات ، أو في كثير من الجزئيات . فليست الجزئية هي التي تحدد الصورة النهائية ، إنما الصورة الشاملة هي التي تحدد مكان الجزئية من الصورة ، ودلالتها في الكل المتكامل الذي تمثله الصورة .

وفي الفصل التالي نعرض خطوطا عريضة لما نتصور أن تكون عليه الدراسات الاجتماعية المستمدة من التصور الإسلامي للإنسان .

192() سورة النحل [109] .
193() سورة طه [124] .

خطوط عريضة في التأصيل الإسلامي

قلت في نهاية الفصل السابق إن الاستمداد من التصور الإسلامي للإنسان ، سيصل بنا في العلوم الاجتماعية إلى نتائج تختلف في المنطلق وفي الغاية عن النتائج التي يتوصل إليها " العلماء " في الغرب ، وإن التقت معهم في بعض التفصيلات أو في كثير من التفصيلات .

ونقول هنا إنه على الرغم من أن هذا الاختلاف سيقع تلقائيا ، نتيجة اختلاف التعامل مع الحيوان المتأله الذي يعيش لدنياه وحدها منقطعة عن الآخرة ، عن التعامل مع الإنسان العابد لله ، الذي يعلم أنه عبدٌ لله ، ولكنه مكرم بعبوديته لأن الخالق الكريم كرمه ، والذي يعيش لدنياه وآخرته في آن واحد .. على الرغم من ذلك فإن الكاتب المسلم الذي يتصدى للكتابة في العلوم الاجتماعية من منطلق إسلامي ، يجب أن يوجه باله إلى عدة أمور ، تعاونه في البحث ، وتجنبه منزلقات كثيرة يقع فيها " علماء " الغرب ..

الأمر الأول أن من بدهيات البحث العلمي أن تكون " العينة " التي يُجْرَى عليها البحث ممثلة تمثيلا صادقا للنوع أو الشيء المراد دراسته وتقنينه ومعرفة خواصه وترتيب النتائج عليه .

فإذا أردنا – مثلا – أن نختبر خواص الحديد ، فلا يكفي – للاطمئنان إلى النتائج اطمئنانا علميا – أن نأخذ عينة من مكان معين ، ونجري عليها ما نشاء من التجارب ، ثم نقول : ثبت لدينا أن خواص الحديد هي كذا وكذا .

ولكن لا بد من أخذ عينات من أماكن شتى ، وإجراء التجارب على كل منها ، فإذا ظهر لنا بعد تكرار التجربة على العينات المختلفة أنها كلها تعطي نتيجة واحدة ، أو نتائج متشابهة بحيث لا يؤبه للخلاف الطفيف فيها ، قلنا مطمئنين : إن خواص الحديد هي كذا وكذا ، وأشرنا إلى الفروق الطفيفة إن وجدت مثل هذه الفروق .

هذا مع العلم بأن التعامل مع المادة أكثر ضمانا في الحصول على نتائج قطعية ونهائية ، لأن المادة – في الغالب – تعطي نتائج متماثلة في الظروف المتماثلة . وإن كان العلم الحديث – المتقدم – قد نفى الحتمية القطعية حتى في عالم المادة ، واستبدل بها نظرية الاحتمالات التي تقول إنه لا شيء قطعي في الكون المادي ، إنما هي احتمالات ، الاحتمال " أ " أكبر من الاحتمال " ب " ، والاحتمال " ب " أكبر من الاحتمال " جـ " .. !

فكيف مع الإنسان .. وكيف مع النفس البشرية ؟!

إننا نتعرض لخطأ علمي فادح حين نأخذ العينة البشرية التي ندرسها من جيل معين من أجيال البشرية ، ثم نستخرج منها نتائج عامة ، ولو قمنا بإجراء التجارب على كل أفراد ذلك الجيل ، وهذا مستحيل بالطبع ! .. لأن

الجيل الذي نختاره للدراسة قد لا يكون ممثلا للنوع البشري في جميع أحواله ، وقد تكون هناك أجيال أخرى منه ذات خصائص مختلفة .

فكيف إذا كانت دراستنا لا تشمل كل أفراد الجيل ، وكان الجيل لا يشمل بالضرورة كل خصائص النوع البشري .. كم تكون دراستنا بعيدة عن الواقع ، وبعيدة عن " الأصول العلمية " التي يجب توافرها في البحث ؟

وقد يبدو ما قلناه بديهية مسلمة لا يغفل عنها " عالم " !

ولكن انظر إلى دوركايم – مثلا – وهو في حس كثير من دارسي علم الاجتماع عمدة لا يراجع ولا يناقش فيما يقول ! .. انظر إليه يأخذ العينة التي يبني عليها استنتاجاته من جيله المنحرف – الذي عملت عوامل كثيرة على إشاعة الانحراف في كيانه – فيقول إن الدين والزواج والأسرة ليست من الفطرة !

فعلى أي شيء بنى تلك النتيجة التي أعطاها صفة القطع ؟!

لقد بناها على جيل معين من أجيال البشرية فرط في دينه ، ولم يعد يلتزم بالزواج إطاراً للعلاقة بين الجنسين ، ولم يعد يهتم بالأسرة كياناً يجمع الأم والأب والأولاد ..

فهل يمكن أن توصف هذه الاستنتاجات بأنها " علمية " وأنها سليمة ؟

وهل يلغي جيلٌ دلالة أجيال لا يحصيها إلا الله وحده ، ولكن لدينا من الآثار المكتوبة والمنقوشة ما يغطي منها سبعة آلاف من السنين أو خمسة آلاف في أقل تقدير ؟!

ولا ندخل الآن في نية الكاتب من إصدار هذه " الفتوى " العلمية المزيفة ، وماذا كان يريد من وراء نفي الثبات عن الدين والزواج والأسرة ، واعتبارها أشياء ليست من الفطرة (أي قابلة للإلغاء في أي وقت) إنما نسأل من الوجهة العلمية البحتة ، هل هذا المنهج : وهو أخذ العينة من جيل معين من أجيال البشرية ثم تعميم النتائج المستمدة منها على النوع البشري كله .. هل هو منهج " علمي " سليم ؟!

وهل معنى هذا – من جهة أخرى – أن نلغي دلالة هذا الجيل الذي وقع فيه التفريط في الدين ، وعدم التزام الزواج إطاراً للعلاقة بين الجنسين ، وعدم التزام الأسرة كيانا يجمع الآباء والأبناء ؟

إننا إذا أغفلنا هذا الجيل ، وألغينا دلالته ، لا نكون واقعيين من ناحية ، ولا تكون النتائج التي نصل إليها صحيحة من الوجهة العلمية ، ولا متصفة بالعموم والشمول الذي ندعيه في البحث العلمي .

إنما يكون المسلك العلمي الصحيح أن نرصد الظاهرة خلال الأجيال ، في آلاف السنين التي نملك عنها بيانا نطمئن إلى صحته ، ثم نقرر **شذوذ هذا الجيل** عن سلسلة الأجيال قبله ، ثم نحاول أن نرصد أسباب هذا الشذوذ في واقعنا المعاصر ، لنعلم إن كان شيئا عارضا قابلا للزوال ، أم إنه تحول في الفطرة البشرية ذاتها خرج بها عن خطها إلى خط جديد ..

وإذا فعلنا ذلك فسيتضح لنا أن " الفتوى " التي أصدرها دوركايم ، ونفى فيها أن يكون الدين والزواج والأسرة أشياء من الفطرة ، هي – على أقل تقدير – فتوى ينقصها الدليل العلمي [194] !

* * *

المزلق الثاني الذي يقع فيه بعض المؤلفين في العلوم الاجتماعية – والذي يجب أن يتجنبه الكاتب المسلم – هو الدعوى التي تقول إن البحث العلمي يجب أن يكون " واقعيا " لا يتعلق " بالمثاليات " ، أي أنه يجب أن يتعامل مع ما هو كائن لا مع ما ينبغي أن يكون !

إن هذا المنطلق يصح في حالة واحدة ، هي أن يكون " ما يجب أن يكون " غير قابل – في ذاته – للتطبيق ، لمخالفته للفطرة البشرية ، أو لكونه خارج حدود قدرة الإنسان . فأما إن كان مما يقدر الناس عليه ، ومما طبق بالفعل في فترة معقولة من الزمن ، فلا تقبل دعوى " الواقعية " في عدم التعامل معه ، ولو انحرف الناس عنه ، بل ولو كان أكثر الناس منحرفين عنه . فالقضية هنا لا تتعلق بالواقعية أو عدمها ، إنما تتعلق بالمرجعية : هل هي للإنسان أم هي لخالق الإنسان !

وهذا المزلق بالذات هو من أشد المزالق التي يقع فيها الغرب في دراساته الاجتماعية ، منذ خروجه من " الربانية " الكنسية إلى " الإنسانية " المتمردة على سطان الله . فإذا اعتبر الإنسان هو المرجع أصبح الهبوط والانحراف أصلا لأنه هو الغالب على الناس في جاهليتهم ، وأصبح التسامي والارتفاع شذوذا لا يؤبه به لقلته وقلة تأثيره في المجموع .

ولكن المسلم مرجعيته هي ما جاء من عند الله ، وليس " واقع " الناس .

وحين يضع الله حدا من الحدود ويجعله ملزما للناس ، فهو بالنسبة للمسلم ملزم ولو عصاه الناس أجمعون !

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ) [195] .

وهو ملزم باعتبارين اثنين في آن واحد .

الاعتبار الأول أنه منزل من عند الله الخالق ، الذي له الأمر بمقتضى كونه هو الخالق سبحانه :

(أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) [196] .

والاعتبار الثاني أنه منزل من عند الله العليم الحكيم ، الذي يعلم حقيقة الإنسان الذي خلقه ، وحقيقة قدراته ، فيكلفه ما يعلم سبحانه أن فيه صلاحه ، وما يعلم أنه في مقدوره :

194() سنتكلم عن هذه القضية بشيء من التفصيل فيما بعد .
195() سورة النساء [64] .
196() سورة الأعراف [54] .

(.. قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [197] .

(لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) [198] .

ومن ثم فكل التكاليف التي كلف الله بها الإنسان ملزمة له بهذه الاعتبارات ، وهي الأصل الذي يجب أن يكون عليه الإنسان . وحين ينحرف عنه يكون انحرافه في خانة " الخطأ " لا في خانة " الواقع " ، ولو وقع في الخطأ كل الناس ! .. فإن كثرة الخطأ وعمومه لا تنفي عنه صفته ، ولا تعطيه شرعية الوجود .

ولكن حين يكون هذا الواجب الملزم قد طبق بالفعل لا في أفراد متناثرين بل في أجيال ، ولقرون عدة متوالية – كما وقع التطبيق على يد الأمة الإسلامية في واقعها التاريخي على الرغم من كل انحرافاتها – فإن الواجب عندئذ يكون أشد إلزاما ، وأوجب في التنفيذ ، وأوجب في اعتباره هو الأصل ، وإن عصاه من عصاه !

يقول تعالى في كتابه المنزل :

(وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) [199] .

فالإيمان بالله واجب ملزم في ذاته – بحجيته الخاصة – ولكن استجابة المستجيبين له تجعله أشد إلزاما ، وتجعل المخالفين أعظم جرماً عند ربهم ، وأشد استحقاقا للغضب وللعذاب الشديد .

كذلك فإن استجابة أجيال من الأمة الإسلامية لما " يجب أن يكون " ، على درجات مختلفة ، يجعله أشد إلزاما للبشرية كلها ، ويجعل المخالفين ، سواء من الأمة الإسلامية ذاتها أو من غيرها من الأمم ، هم المخطئين ، أيا كانت نسبتهم ، وأيا كانت نسبة بعدهم عما يجب أن يكون .

والواقعية الإسلامية لن تزيف الواقع ، ولن تعطيه وصفا ليس له . ولكن الفرق بينها وبين واقعية الغرب أنها تتسع للواقع كله ، بشقيه ، الواقع الذي يجب أن يكون عليه الناس ، والواقع الذي عليه الناس بالفعل في أي جيل من أجيالهم ، مقيسا بما يجب أن يكون ، أي موضوعة مخالفاته في خانة الخطأ والانحراف .

وقد يظن بعض الناس أن هذا افتعال وتمحل لا موجب له ! فندلهم – من الواقع – على موجبه !

تناقش البرلمان البلجيكي – الموقر [200] – ذات يوم في قضية الصور العارية التي تصور أوضاعاً مخلة بالأدب والحياء . فقال أعضاء – محترمون

197() سورة المائدة [15 – 16] .
198() سورة البقرة [286] .
199() سورة الشورى [16] .
200() كل البرلمانات موقرة بالضرورة .

– فلنكن واقعيين ! .. إن هذه الصور موجودة بالفعل ، وتملأ السوق ، وإن كانت تتداول خلسة . فما قيمة إصرارنا على منعها ، وتجاهل الأمر الواقع ؟![201]

وأخذ المجلس الموقر بوجهة نظر النواب المحترمين ، فأصدر قرارا بإباحة تداول الصور التي كانت ممنوعة بحكم القانون . وفي اليوم التالي – كما قالت الصحف البلجيكية ذاتها ، والصحف العالمية كذلك – انتقلت الصور من خفايا الأزقة كما كانت من قبل إلى صدر المحلات الواقعة في الشوارع الرئيسية .. فزاد الإقبال عليها وزادت نسبة انتشارها أضعافا مضاعفة .

ومرة أخرى وقع ذلك المجلس الموقر نفسه في تلك الواقعية الحمقاء ، فقال قائل فيه : فلنكن واقعيين ! .. إن المخدرات ممنوعة بموجب القانون ، ولكنها موجودة ومتداولة رغم قرار المنع ، فما قيمة القرار ؟! .. وتداول المجلس الموقر في الأمر فقرر رفع الحظر عن تعاطي المخدرات ! .. ثم قالت الصحف إن الأطفال في الحافلات العامة صاروا يحقن بعضهم بعضا وهم راكبون في الحافلة !

فأي حماقة ترتكبها تلك الواقعية الحمقاء ؟!

إن قرار المنع هو لون من النهي عن المنكر ، ومهما يكن ضعفه ، وضعف فاعليته ، فهو على أية حال قيد على الانحراف ، فإذا رفعت القيد – بحجة الواقعية – فإن الأمر لا يقف عن الحد الذي كان عليه حين رفعت القيد ، وإنما تجربة الواقع التاريخي كله تقول إنه يزداد سوءا وضراوة بحكم ثقلة الشهوات في النفوس ، وجذبها الدائم للناس إلى أسفل . ولذلك أعطى الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اعتبارا عظيما حتى جعل خيرية هذه الأمة متعلقة به (مع الإيمان بالله) ، وجعل اللعنة على الأمة التي كفت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) [202] .

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) [203] .

وحين يؤلف مؤلف كتابا أو يبحث بحثا ويسعى إلى نشره فإنه يقصد من وراء ذلك إلى قصد معين ، ودع عنك أكذوبة " الفن للفن " و " العلم للعلم " فهي لا تصدق بالنسبة لعملية النشر ! .. فإنما ينشر المؤلف كتابه لينشر فكره بين الناس . أي أنه داعية يدعو إلى فكر معين .. فما موقف المسلم من هذه القضية ؟! .. إلى أي شيء يدعو الناس ؟!

201() وكل الأعضاء محترمون بالضرورة كذلك !
202() سورة آل عمران [110] .
203() سورة المائدة [78 – 79] .

حين يعطى الواقع المنحرف شرعية الوجود بحجة أنه واقع بالفعل ، فإنه في واقع الأمر يدعو إلى مزيد من الانحراف ، ويؤدي إلى مزيد من الانحراف !

وعلى العكس من ذلك فإنه حين يجعل المرجعية لما أنزل الله ، ويزن الأمور بميزان الله ، فيضع الانحراف في خانة الانحراف ، ويبين الأصل الذي يجب أن يكون ، فهو داعية يدعو إلى الصعود ، ولن تضيع الدعوة في الأمة ما دام فيها دعاة مخلصون ، يبتغون بدعوتهم وجه الله . ولأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم . فكيف وأنت تدعو أمة بأكملها في مدارسها ومعاهدها وجامعاتها ؟!

وليس مقتضى ذلك – قط – أن تتحول الدراسات الاجتماعية إلى مواعظ ! .. ولا يتصور الأمر على هذه الصورة إلا جاهل أو معاند . إنما هي الدراسة " العلمية " بكل موضوعية العلم ، " الواقعية " بكل صرامة الواقع ، ولكنها الواقعية الكبيرة التي تتسع لواقع التاريخ ، وواقع الأجيال ، وتركز على صعود تصعده البشرية ، ولا تركز فقط على لحظات الهبوط ولحظات الانحراف !

وفيما يلي من الصفحات نعرض خطوطا عريضة لما يمكن أن يكون " ورقة عمل " للتأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية .

(1)
في علم الاجتماع

علم الاجتماع الإسلامي ينبغي أن يركز على الموضوعات الآتية :

1- السنن الربانية التي تحكم الحياة البشرية ، وخاصة سنن التمكين في الأرض ، وسنن التدمير .

2- الثابت والمتغير في حياة البشرية .

3- الدين والفطرة .

4- مكانةالأسرة في البنيان الاجتماعي .

5- العلاقة المتبادلة بين الفرد والمجتمع .

* * *

أولا : السنن الربانية

تجري الحياة البشرية بمقتضى سنن أجراها الله قي خلقه ، وثبتها سبحانه وتعالى لتنتظم الحياة البشرية على نسق واضح يعرف الإنسان خطواته ومبتدأه ومنتهاه ، لكي يسير على هدى ولا يتخبط في سيره . ثم عرّفنا بهذه السنن في كتابه المنزل ، وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لكي نكون على بينة من الأمر في تصرفاتنا ، وونقدر مسئوليتنا في كل تصرف ، فلا نكون في تصرفاتنا عفويين ، ولا فوضويين ، ولا قصار النظر [204] .

ولأن السنن الربانية كيثرا ما تكون أطول مدى في تحققها من حياة الفرد القصيرة المحدودة – وخاصة ما يتعلق منها بالجماعات البشرية – فقد وجهنا الله سبحانه وتعالى أن نتدبر التاريخ ، ونستخرج عبرته ، إذ التاريخ هو المجال الواقعي الذي تحققت فيه السنن الربانية من قبل ، وتتحقق من بعد – لثبوتها وحتميتها – فما لا يدرك الإنسان تحققه في فرصة عمره المحدود ، يستطيع أن يراه متحققا في التاريخ ، فيستيقن من صدق السنن ، وأنها لا تتخلف ولا تنحرف عن مسارها ، ولا تجامل أحداً من الخلق .

204() مما يلاحظ أن هذه الأمراض الثلاثة : الفوضوية التي تكره النظام ، والعفوية اتي تكره التخطيط ، وقصر النظر ، الذي يصاحبه ويتبعه قصر النفس ، والاشتعال السريع والانطفاء السريع ، هي من أشد الأمراض التي أصابت الأمة حين فقدت وعيها الحقيقي بدينها ، والتمسك به على بصيرة ، ومن أشد ما ينبغي الالتفات إليه في حركة التصحيح .

وحول ثبات السنن واستمراريتها وعدم تخلفها وعدم تبدلها تثور عدة قضايا يدخل بحثها في مجالات علم الاجتماع الإسلامي ، بعضها يتصل بالعقيدة ، وبعضها يتصل بوضع الإنسان في الحياة .

فمما يتصل بالعقيدة أنه لا قيد على مشيئة الله سبحانه وتعالى ، فمشيئته حرة طليقة يفعل ما يشاء ، وهو فعال لما يريد . وتثبيت السنن في جريانها هو من فعله سبحانه وتعالى ومن مشيئته ، دون حتمية عليه جل وعلا ، فإنه إن شاء أن يغيرها فليس في الوجود كله من يقف أو ما يقف أمام مشيئته . ولكنه من رحمته بالإنسان ثبت تلك السنن ، ليعرف الإنسان طريقه على هداها ، ويرسم لنفسه خط سيره على هدى وبصيرة .

ثم إن لله خوارق تخرق السنن الجارية – سواء في الكون المادي أو في الحياة البشرية [205] – يجريها الله متى شاء لمن شاء ، ولا يسأل سبحانه عما يفعل في الكون الذي خلقه بقدرته ، ويجريه بقدرته . ولكنا – نحن البشر – مأمورون في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أن نتبع السنن الجارية ، وألا نتعلق بالخوارق ، التي لا نملك أمرها ، ولا نستطيع إجراءها ، بينما السنن الجارية معلومة الأول والآخر ، فالاهتداء بها هو الأليق بالبشر ، وهو سبيل النجاح .

وأما ما يتصل بوضع الإنسان في الحياة ، فإن حتمية السنن الربانية تختلف اختلافا جذريا عن الحتميات الزائفة التي أتت بها الجاهلية المعاصرة خاصة ، سواء الحتمية المادية أو الحتمية التاريخية التي اصطنها ماركس ، أو الحتمية النفسية التي اصطنعها فرويد ، أو الحتمية الاجتماعية التي اصطنعها دوركايم ، والتي تلغي إيجابية الإنسان إزاء الضغوط الواقعة عليه من خارج كيانه أو من داخل كيانه ، وتجعله عبداً ذليلا خاضعا للأوضاع المادية ، أو لضغط الشهوات ، أو لضغط المجتمع ، في الوقت الذي يرفض فيه أن يكون عبداً لله !

إن هذه الحتميات الزائفة تلغي في الحقيقة " إنسانية الإنسان " المتمثلة في الوعي والإرادة والحرية التي بثتها نفخة الروح في قبضة الطين ، وترده قبضة طين خالصة ، أو على الأكثر حيوانا قريب الصلة بقبضة الطين .

ماركس يقول صراحة إن وجود الناس (يقصدهم وجودهم في طور مادي معين) هو الذي يعين شعورهم ، وليس شعورهم هو الذي يعين وجودهم ، ومن شذ – بشعوره أو سلوكه – سحقته عجلة التطور الحتمي !

وفرويد يقول صراحة إن مخزون اللاشعور – الجنسي في طبيعته – هو الذي يشكل للإنسان سلوكه ، ولا معدى للإنسان عن طاعته ، فإن خرج عن طاعته أصابته العقد والاضطرابات النفسية والعصبية !

ودوركايم يقول صراحة إن " العقل الجمعي " هو الذي يشكل للأفراد عقائدهم وأفكارهم وأنماط سلوكهم ، من خارج نفوسهم ، ودون إرادة منهم ، ولا يملك الفرد مخالفته ، ولا حيله له إلا اتباعه !

205() هنا تفترق الرؤية الإسلامية عن رؤية نيوتن ومن سار على نهجه الخاطئ ، الذين قالوا بحتمية قوانين الطبيعة ونفوا المعجزات !

وكلها – كما ترى – حتميات تلغي الوجود الحقيقي " للإنسان " .

وعالم الاجتماع المسلم عليه أن ينبه إلى زيف هذه الحتميات كلها ، ويبين في الوقت ذاته معنى حتمية السنن الربانية ، والفرق الهائل بينها وبين الحتميات الزائفة .

إن السنن الربانية لا تفرض على الإنسان سلوكا بعينه . إنما تقول له إنه إذا اختار كذا فالنتيجة الحتمية لهذا الاختيار هي كذا . فهي تدع له حرية الاختيار ، ولكنها ترتب نتيجة معينة ، ثابتة لا تتغير ، على الاختيار الحر الذي يختاره . وهي من ثم تكرّم الإنسان إذ تدع له حرية الاختيار ، وتتعامل في الوقت ذاته مع العنصر " الإنساني " فيه – وهو الوعي والإرادة والحرية – فتقول له إنه مسئول عن عمله ، وعن النتائج التي تترتب على عمله ، لأنه اختاره بوعي وإرادة وحرية :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) [206] .

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ) [207] .

وفرق كبير بين حتمية السنن الربانية – على هذه الصورة المؤكِّدة لإنسانية الإنسان وإيجابيته – وبين الحتميات الزائفة التي أتت بها الجاهلية المعاصرة خاصة على يدي أكابر " علمائها " !

وإن الإسلام – بواقعه التاريخي – لهو الشاهد على كذب تلك الحتميات الزائفة كلها ، وصدق السنن الربانية ، وتكريمها للإنسان ، فليس في الإسلام شيء واحد يمكن أن ينشأ من الحتمية التاريخية ، أو الحتمية النفسية ، أو الحتمية الاجتماعية ، التي زعمها ماركس وفرويد ودوركايم ، إنما هو واقع قوم اختاروا الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، فغيروا ما بأنفسهم ، فغيروا – بحول الله ، وبمقتضى سنن الله – كل الواقع المادي والاقتصادي والنفسي والاجتماعي الذي كان قائما في الأرض واستبدلوا به غيره !

شعور الناس هو الذي حدد وجودهم على عكس ما قال ماركس .

ارتفاع مشاعر الناس عن الحيوانية الغريزية هو الذي جعل منهم أكبر طاقة بانية معمرة في التاريخ ، على عكس ما قال فرويد .

إيمانهم – بإرادتهم ومن داخل نفوسهم – هو الذي أزاح كل الأعراف الاجتماعية التي كانت قائمة في وقتهم ، وأنشأ بدلا منها أعرافا جديدة قويمة ، على عكس ما قال دوركايم .

وثبتت سنة الله ، ووعده ووعيده ، فمكن الله للمؤمنين ، ودمر على الكافرين :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

206() سورة الشمس [7 – 10] .
207() سورة الزلزلة [7 – 8] .

وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً) [208] .

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا) [209] .

* * *

من بين السنن التي يجب التركيز عليها أنه لا تحصيل بغير جهد يبذل .

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ فِي كَبَدٍ) [210] .

(يَا أَيُّهَا الْأِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ) [211] .

وواضح في الآيتين أن الحديث والخطاب هو " للإنسان " كله ، مؤمنه وكافره . فتلك من السنن العامة التي يشترك فيها " الإنسان " كله ، ولا تخص فريقا من الناس دون فريق [212] .

وأهمية التركيز على هذه السنة في واقعنا المعاصر هي ضرورة تصحيح المفاهيم التي أفسدتها انحرافات الأمة الإسلامية في مسيرتها التاريخية الطويلة فأبعدتها عن حقيقة الإسلام .

إن الإسلام دعا المؤمنين إلى التوكل على الله ، مع اتخاذ الأسباب :

(فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) [213] .

والعزيمة ليست مجرد الرغبة ، ولا مجرد النية ، إنما هي إجراء عملي يتم قبله ومعه إعداد العدة :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) [214] .

ولكن الصوفية المنحرفة – مع الميل البشري للتفلت من التكاليف – قد حول التوكل إلى تواكل مريض ، لا يمت بصلة للتوكل الإسلامي الصحيح المطلوب من المؤمنين ، وإن زعم أصحابه أنهم هم أصحاب الصلة الوثيقة بالله !

والتوكيد على هذه السنة التي تقول إنه لا بد من بذل الجهد ليتم التحصيل ، ضروري لمعالجة ما أحدثه التواكل المريض من ضعف وتخاذل وتقاعس في بنية الأمة .

* * *

208() سورة النور [55] .
209() سورة محمد [10] .
210() سورة البلد [4] .
211() سورة الانشقاق [6] .
212() هناك إلى جانب السنن العامة سنن خاصة بالمؤمنين وحدهم وأخرى للكافرين وحدهم ، سنتكلم عنها فيما بعد .
213() سورة آل عمران [159] .
214() سورة الأنفال [60] .

من السنن العامة كذلك أن الله يعطي على الجهد – في الدنيا – للمؤمن والكافر سواء ، على قدر ما يبذلون من الجهد بالطريقة الصحيحة المتسقة مع السنن الكونية .

(كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً) [215] .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ) [216] .

ولكن النظر في هذه السنة يستتبع النظر في سنن أخرى في ذات الوقت ، فإن السنن في الربانية لا تعمل في حياة الناس فرادى ، ولكنها تعمل مجتمعة ، وإن بدت إحدى السنن في ملابسة معينة أظهر فاعلية من غيرها ، ولكن الحصيلة النهائية للواقع البشري هي الحصيلة النهائية للسنن الربانية مجتمعة ومتشابكة .

يترتب على هذه السنة – وهي مدّ المؤمن والكافر كليهما من عطاء الله ، وكون هذا العطاء في الدنيا مبذولا لمن أراد التحصيل منه ، وبَذَلَ الجهد اللازم له واتخذ الأسباب – يترتب على هذه السنة اعتبار هام بادئ ذي بدء ، هو أن النجاح والتمكين في الحياة الدنيا ليس في ذاته مقياسا للصلاحية ولا للخيرية ، ما دام يعطى للمؤمن والكافر على السواء !

وهذا مزلق من أشد المزالق التي تقع فيها العلوم الاجتماعية الغربية ، ويقع فيه – بالعدوى – كل من انجرف في تيار الغزو الفكري متأثرا بتلك العلوم ، والنظرة الكامنة وراءها ، ومتأثرا في الوقت ذاته بغلبة الغرب الحالية وانحسار الوجود الإسلامي إلى ما دون الحضيض !

النجاح والتمكين في الحياة الدنيا دليل مؤكد على شيء واحد – حسب السنة الربانية – هو أن أهله قد عزموا ، وقد أرادوا ، وقد اتخذوا الأسباب التي رأوها موصلة إلى الهدف المطلوب . ولكنه ليس دليلا مؤكدا على أي شيء وراء ذلك !

ليس دليلا على أن أصحابه ذوو منهج " إنساني " سليم ، ولا ذوو رقيٍّ أخلاقي ولا نفسي ولا حضاري ولا قِيَميّ .. بعبارة أخرى : لا علاقة له " بالخيرية " .

والأدلة من التاريخ أكثر من أن تحصى !

فقد اكتسح التتار – في همجيتهم – بقاعا شاسعة من الأرض ، ودكوا حضارات كانت قائمة ، وأزالوا دولا ذات سلطان .. ولم يتهمهم أحد بأنهم كانوا يومئذ على شيء من الخيرية في أمر من الأمور !

وقد سادت الإمبراطورية الرومانية الأرض ردحا من الزمن غير قليل ، وهي قائمة على العسف والظلم والقهر واستعباد الآخرين واستغلالهم أسوأ استغلال .

215() سورة الإسراء [20] .
216() سورة هود [15] .

و " الحضارة " الغربية الحالية هي وريثة الإمبراطورية الرومانية في عسفها وظلمها وتجبرها وطغيانها ، وإن انخدع عن هذه الحقيقة المنخدعون !

كلا ! لا علاقة للتمكين في الأرض " بالخيرية " بمعناها الإنساني ، القيمي ، الأخلاقي ، وذلك بصريح الآية التي تقرر أن الله يمد هؤلاء وهؤلاء – أي الخيرين والشريرين – من عطائه فـي الحياة الدنيا ، وبشهادة التاريخ ، التي تشهد " بالنجاح " الأرضي لكثير من الأوغاد !

يقول صلى الله عليه وسلم : " لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما أعطى الكافر منها شربة ماء " [217] ولكنها لا تساوي عنده جناح بعوضة ! .. ولذلك يتركها لكل من هفت نفسه إلى شيء منها !

إنما الخيرية لها معيار آخر ، يقترن – أو لا يقترن – بالتمكين !

والأصل في السنة الربانية أن الله يمكن للمؤمنين ، حين يتخذون الأسباب اتخاذا صحيحا ، ويتوكلون على الله حق التوكل ، ولا يتواكلون :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ...) [218] .

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) [219] .

ولكن الله – لحكمة عنده – قد يجري سننا أخرى ، لا يكون فيها الخيرون الصالحون ممكنين في الأرض ، بل يكون الممكنون هم الطغاة المتجبرين ، الذين يسومون المؤمنين العذاب .

لقد كان سحرة فرعون – بعد إيمانهم – هم الخيرين الصالحين ، ولكنهم لم يمكنوا في الأرض ، بل اجتثهم الفرعون الشرير اجتثاثا من الأرض ، فقتّلهم ومثل بهم ، وبقي هو متمكنا إلى حين .

وكان المؤمنون الذين أحرقوا عن بكرة أبيهم في الأخدود الخيرين الصالحين ، ولكنهم لم يمكنوا في الأرض وكان الممكنون هم الطغاة الجبارين **(الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا)** [220] .

وكان أصحاب الكهف هم الخيرين الصالحين ، ولكنهم لم يمكنوا في الأرض ، وكان الممكنون هم الطغاة الذين اضطهدوهم ، والذين ظل الخوف من جبروتهم كامنا في قلوب أهل الكهف **(ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً)** [221] . إذ قالوا حين قاموا : **(إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً)** [222] .

هنا سنة أخرى من سنن الله هي سنة الابتلاء :

217() أخرجه الترمذي وابن ماجة .
218() سورة النور [55] .
219() سورة الأنبياء [105] .
220() سورة البروج [10] .
221() سورة الكهف [25] .
222() سورة الكهف [20] .

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) [223] .

وغالبا ما يكون الابتلاء للتمحيص ، تمهيدا للتمكين بعد التمحيص .

(وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ) [224] .

ولكن يكون الابتلاء الشديد أحيانا لحكمة أخرى غير التمكين في الأرض ، هي إعطاء النموذج الفذ للتجرد الكامل لله ، والاستعلاء بالإيمان على كل قوى الأرض ، وكل متاع الحياة الدنيا ، ابتغاء الآخرة وحدها ، دون أيّ أمل في أيّ نجاح في الأرض .. وهو نموذج يربي الله به الأجيال المؤمنة لترتفع وترتفع وترتفع .. وتبلغ الغاية في الارتفاع .

وكلها سنن ، يجري الله منها ما يشاء حين يشاء :

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ) [225] .

* * *

ولكن حين يقدر الله التمكين للخيرين الصالحين ، حين يتخذون الأسباب الصحيحة للتمكين ، من العلم والعمل والعزم والمثابرة وعدم الوهن وعدم التخاذل وعدم التقاعس ، فإنه يخصهم بسنن خاصة لا ينعم بها على غير المؤمنين ، حين يقدر لهم التمكين في الأرض بما اتخذوا من أسباب .

فالكفار – كما قلنا – يمكن الله لهم في الأرض إذا شاء ، حين " يريدون " الحياة الدنيا وزينتها ، ويحولون هذه الإرادة إلى جهد يبذلونه في واقع الحياة ، مستغلين فيه ما سخره الله للبشر جميعا من طاقات السموات والأرض :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ) [226] .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ...) [227] .

(.. وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ..) [228] .

بل قد يزيد سبحانه فيفتح عليهم أبواب كل شيء من التمكين المادي حين يلجون في الغواية ، فييسر لهم القوة السياسية ، والقوة الحربية والقوة الاقتصادية ، والقوة العلمية ، والقوة التقنية ..

223 () سورة العنكبوت [2 – 3] .
224 () سورة آل عمران [141] .
225 () سورة الرعد [41] .
226 () سورة هود [15] .
227 () سورة الإسراء [18] .
228 () سورة الشورى [20] .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ..) [229] .

ولكن يبقى بابان لا ينفتحان للكفار أبدا ، لأن الله وضع مفتاحهما في يد المؤمنين وحدهم كما أشرنا من قبل ، باب البركة وباب الطمأنينة :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) [230] .

(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) [231] .

وواقع الغرب اليوم هو الشاهد على تحقق السنن الربانية التي لا تبديل لها ولا تحويل :

(فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً) [232] .

فقد وصل الغرب – وأمريكا بصفة خاصة – إلى تحقيق " مجتمع الوفرة society of plenty " الذي كانوا يصبون إليه ، ويتخذون إليه الأسباب .. ولكن أين البركة وأين طمأنينة القلوب ؟!

سلهم عنها فهم بها خبراء !

وذلك في الحياة الدنيا ، أما حساب الآخرة فله شأن آخر ، حدث عنه ولا حرج !

* * *

من السنن التي تستحق التركيز من العالم المسلم ، ما يختص منها بقيام الدول وزوالها ، وقد كان لابن خلدون اهتمام بهذه الظاهرة وأعطاها تفسيره المعروف ، الذي أخذه عنه " توينبي " المؤرخ الإنجليزي المعاصر فيما سماه سنة الشيخوخة . ومفادها أن الدول تبدأ صغيرة ثم تكبر ، وتكون في فترة شبابها قوية ذات شكيمة وعزيمة ، ثم يدب إليها الوهن فتهرم ثم تموت .

وربما كان ما يقوله ابن خلدون ، وينقله عنه " توينبي " حقيقة واقعة ، ولكن لا شك أن له أسبابه ، ما دام الله يقول : **(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)** [233] . فالشيخوخة التي تصيب الأمم فتهلكها ليست في ذاتها هي السنة ، كما هي في حياة الأفراد من البشر :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً) [234] .

229() سورة الأنعام [44] .
230() سورة الأعراف [96] .
231() سورة الرعد [28] .
232() سورة فاطر [43] .
233() سورة الأنفال [53] .
234() سورة الروم [54] .

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) [235] .

إنما يحدث الضعف الذي يؤدي إلى الموت في الأمم حين يغير الناس ما بأنفسهم . فنستطيع أن نقول بصفة عامة إن الدول في نشأتها تكون محوطة بأعداء يلزمها التغلب عليهم لكي تتمكن في الأرض ، فيبعثها ذلك على شحذ همتها واستجماع قوتها حتى تصمد في الصراع بينها وبين جيرانها ثم تتمكن من إخضاعهم أو القضاء عليهم . ثم تمر بعد ذلك فترة يكون الناس فيها أقوياء ولكنهم متربصون يقظون لئلا يقوم الأعداء مرة أخرى فيهاجموهم ، وتلك هي أقوى الفترات التي تمر بالدولة وأنشطها في كل اتجاه . ثم يطمئن الناس إلى أن قوتهم أصبحت لا تغالب ولا تغلب ، فيبدأ الترف يدب في أوصالها ، نتيجة امتلاكها القوة والثروة وعدم وجود المنازع الذي يؤبه له ويحسب له حساب ! والترف هو الحمض الأكال الذي يأكل الأمم والشعوب ، لأنه مفسد متلف مفتّر باعث على القعود صارف عن بذل الجهد . وعندئذ يكون الهلاك بقدر من الله ، وبسنة من سنن الله !

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً) [236] .

ومهما يكن من الأمر ، فالنقطة التي نود أن يتناولها علم الاجتماع الإسلامي هي : أمة العقيدة .. هل ينطبق عليها سنة الفناء بالشيخوخة كما يقول ابن خلدون ، أي الهلاك بالترف كما تقول السنة الربانية المفسرة ؟

نريد أن نفرق بين " الدولة الإسلامية " و " الأمة الإسلامية " .

لقد هلكت الدولة الأموية بالترف ، وهكلت من بعدها الدولة العباسية ودولة المسلمين بالأندلس ، والدولة العثمانية .. كلها هلكت بهذا الداء المهلك الذي جعله الله في سننه سببا لزوال الدول .

ولكن " الأمة الإسلامية " هل فنيت أو يكتب لها الفناء ؟!

فأما المستقبل فغيب لا يعلمه إلا الله . وأما الحاضر فيقول : إن الله قد أعفى هذه الأمة – حتى اللحظة – من هذه السنة – إن كانت سنة ! – وكتب لها البقاء .. خمسة عشر قرنا ربما كانت أطول عمر عاشته أمة واحدة في التاريخ ! وذلك على الرغم من فناء " دول إسلامية " كثيرة خلال هذا المدى من التاريخ .

والدلالة قائمة في حركات البعث الإسلامي .. إنها تقول : إنه ما زال في كيان هذه الأمة ما يبعثها من جديد كلما أوشكت على الفناء ، تحقيقا لوعد الله : " يبعث الله على رأس كل قرن من يجدد لهذه الأمة أمر دينها " [237] وحين يتجدد الدين تتجدد الأمة ، لأن حياة هذه الأمة في هذا الدين !

وليس من شأن هذه العجالة على أي حال أن تستعرض السنن الربانية كلها ، أو تبسط الحديث فيها ، فإنما هي إشارات .. مجرد إشارات !

235() سورة آل عمران [184] .
236() سورة الإسراء [16] .
237() أخرجه أبو داود .

ثانيا : الثابت والمتغير في حياة البشرية

قضية الثابت والمتغير من القضايا الهامة في علم الاجتماع . فمن الواضح أنه يوجد في حياة البشرية ثوابت ومتغيرات . فما الذي يثبت وما الذي يتغير ؟ وعلى أي أساس يثبت الثابت ويتغير المتغير ؟ هل هناك أسس ومعايير ؟ أم الأمر فوضى بلا نظام ؟!

فأما دوركايم – الذي يرجع إليه كثير من " المفكرين " عندنا بلا ترو – فقد وضع الثوابت كلها – بما فيها الدين والزواج والأسرة – على الخط المتغير ، وقال إنه لا توجد ثوابت على الإطلاق !

يقول في كتاب " قواعد المنهج في علم الاجتماع " :

" ومن هذا القبيل (يقصد محاولة تفسير الظواهر الاجتماعية بأن لها جذورا في نفوس الأفراد) أن بعض هؤلاء العلماء يقول بوجود عاطفة دينية لدى الإنسان وبأن هذا الأخير مزود بحدٍّ أدنى من الغيرة الجنسية والبر بالوالدين ومحبة الأبناء ، وغير ذلك من العواطف . وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج والأسرة على هذا النحو ، ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية في الإنسان " !!

" وحينئذ فإنه يمكن القول بناء على الرأي السالف بأنه لا وجود لتفاصيل القواعد القانونية والخلقية في ذاتها ، إذا صح التعبير ... ومن ثم فليس من الممكن تبعا لهذا الرأي ، أن تصبح مجموعة القواعد الخلقية التي لا وجود لها في ذاتها ، موضوعا لعلم الأخلاق .. " [238] .

ثم قال فوق ذلك إن " العقل الجمعي " هو الذي يغير كل شيء في حياة الأفراد ، ويتحكم فيهم من خارج أنفسهم ويفرض عليهم كل ما يعتنقونه من العقائد والأفكار والمشاعر وأنماط السلوك !

" .. إن ضروب السلوك والتفكير الاجتماعيين أشياء حقيقية توجد خارج ضمائر الأفراد ، الذين يجبرون على الخضوع لها في كل لحظة من لحظات حياتهم " [239] .

ثم أضاف في النهاية إن هذا العقل الجمعي المتحكم في الأفراد من خارج كيانهم لا يثبت على حال !!

وهو لا ينفي الثبات على إطلاقه .

" ولكن لما كان هذا العمل المشترك (الذي تنشأ عنه الظواهر الاجتماعية) يتم خارج شعور كل فرد منا – وذلك لأنه نتيجةٌ لعدد كبير من الضمائر الفردية – فإنه يؤدي بالضرورة إلى تثبيت وتقرير بعض الضروب

238() إميل دوركايم ، قواعد المنهج في علم الاجتماع ، ترجمة الدكتور محمود قاسم ومراجعة الدكتور السيد محمد بدوي ، طبع القاهرة ، الطبعة الثانية ص 168 – 169 .

239() المرجع السابق ص 22 .

الخاصة من السلوك والتفكير ، وهي تلك الضروب التي توجد خارجة عنا ، والتي لا تخضع لإرادة أي فرد منا " [240] !

ودعك مؤقتا من التملص – غير العلمي – من الحقائق الدامغة التي لا مهرب منها إلا بالتحايل عليها ، إذ يثبت أن الظواهر الاجتماعية تنشأ نتيجة " لعدد كبير من الضمائر الفردية " ، ثم يقول في نفس الوقت إنها " لا تخضع لإرادة أي فرد منا " . وهي معادلة لا تتم على أي ميزان إلا ميزان الهوى المختل .

(وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ) [241] .

ولكن انظر إلى ما ينفي ثباته ! إنه " القيم الإنسانية " بالذات : الدين والزواج والأسرة والأخلاق !

ولا يستحي دوركايم أن يجعل مرجعه في ذلك عالم الحيوان !

" أضف إلى ذلك إنه لم يقم قط برهان على أن الميل إلى الاجتماع كان غريزة وراثية وجدت لدى الجنس البشري منذ نشأته . وإنه لمن الطبيعي جدا أن ننظر إلى هذا الميل على أنه نتيجة للحياة الاجتماعية التي تشربت بها نفوسنا على مر العصور والأحقاب . وذلك لأننا نلاحظ في الواقع أن الحيوانات تعيش جماعات أو أفرادا تبعا لطبيعة مساكنها التي توجب عليها الحياة في جماعة أو تصرفها عن هذه الحياة " [242] .

فهل كان دوركايم يكتب عن علم الاجتماع البشري أم علم اجتماع الحيوان ؟!

إن أثر اللوثة الداروينية واضح عند دوركايم ، سواء في رجوعه الصريح في قضية الثابت والمتغير إلى عالم الحيوان ، أو في تصويره " للعقل الجمعي " الذي يؤثر في الأفراد من خارج كيانهم ، والذي يوازي غريزة القطيع عند الحيوان . ولا نستغرب إذن من صاحب هذا التفسير الحيواني للإنسان أن ينفي أصالة الدين والزواج والأسرة والأخلاق في فطرة الإنسان ، لأنها ليست أصيلة في عالم الحيوان !

* * *

القضية في أمر الثابت والمتغير لها مدخلان ينتهيان في النهاية إلى نتيجة واحدة : المدخل الأول هو المرجعية ، والمدخل الثاني هو مراجعة التاريخ .

لمن المرجعية في تقرير ما يجب أن يثبت ، وما يباح فيه التغيير ؟ أهي للخالق ، العليم الحكيم ، أم للإنسان الذي لا يخلق شيئا ، وهو محدود العلم والحكمة ؟

وهذه القضية عند المسلم ليست محل مراجعة ، إنما يجادل فيها الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويقول الله عنهم : **(إِنَّ الَّذِينَ**

240() المرجع السابق ص 25 .
241() سورة المؤمنون [71] .
242() " قواعد المنهج " ، المرجع السابق ص 173 .

يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [243] .

وأما الواقع التاريخي للإنسان ، فهو يدلنا على أشياء غير التي أخبر بها دوركايم بغير دليل حين قال : " ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات (الدين والأخلاق والأسرة) ليست فطرية في الإنسان " !!

إن كل ما يقوم به الإنسان من ألوان النشاط هو أصيل في تكوينه . حتى شهواته التي قد ينشأ عنها انحرافه هي أصيلة فيه ، وإن كان الانحراف بها عن مسارها الصحيح ليس هو الأصل الذي خلق الله هذه الشهوات من أجله ، ولكنه يرد على الكيان البشري ، **كما يرد** المرض على الجسم وإن كانت الصحة هي الأصل فيه .

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) [244] .

الأصل فـي هذه الشهوات أن تكون دوافع لعمارة الأرض التي خلق الله الإنسان ليقوم بها .

(هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) [245] .

وحين تكون في مسارها الصحيح – أي حين تكون ملتزمة بالثوابت التي فرضها الله – فهي عندئذ قوة معينة على الخير ، مؤدية للخير ، في الدنيا والآخرة على السواء .

أما حين تنحرف عن المسار الصحيح – أي حين تصطدم بالثوابت التي فرضها الله – فهي عندئذ قوة مدمرة ، تهلك الإنسان ، وتفسد حياته في الدنيا والآخرة على السواء .

وفي الوقت ذاته هي نقطة الابتلاء الدائمة التي يختبر بها الإنسان : هل يطيع فيها ربه ، فيلتزم بالثوابت التي فرضها عليه ، أم يطيع الشيطان ؟

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا) [246] .

وقد ثبّت الله الدين والزواج والأسرة ، فقال عن الدين :

(فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) [247] .

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا) [248] .

وقال عن الزواج والأسرة :

243() سورة غافر [56] .
244() سورة آل عمران [14] .
245() سورة هود [61] .
246() سورة الأنعام [132] .
247() سورة الروم [30] .
248() سورة الأعراف [172] .

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [249] .

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) [250] .

ويقول الواقع التاريخي إن الإنسان خلال حياته كلها – فيما عدا هذا الجيل الضائع الذي أخرجته عن صوابه عوامل شتى – كان له دين يعتنقه – صحيحا كان دينه الذي يعتنقه أو منحرفا [251] – وكان يمارس الزواج ويسعى إلى الحياة في داخل أسرة . فإذا كان جيل من أجيال البشرية قد أفسد بعوامل شتى فلا يعتبر – من الوجهة العلمية البحتة – مقياسا ، ولا يلغي وجوده دلالة ظواهر اجتماعية لم ينقطع وجودها خلال عشرات من القرون ، ولا يحول الثوابت إلى متغيرات !

ثم إن الله ثبت " القيم الأخلاقية " التي ينبغي للإنسان أن يقيم عليها حياته ، ليكون جديرا بالكرامة التي كرمه بها خالقه يوم خلقه ، والتي وردت تفاصيلها في الوحي الرباني .

وهنا نجد أن الواقع التاريخي يقول إن أكثر الناس لا يلتزمون بهذه القيم الأخلاقية ، وينحدرون عنها بدافع الهوى والشهوات .

ولكن انحراف الناس عن الأصل – ولو انحرف الناس كلهم في جميع العصور [252] – لا يجعل الانحراف هو الأصل ، وذلك من المدخلين كليهما اللذين دخلنا منهما غلى قضية الثابت والمتغير : باب المرجعية ، وباب التاريخ .

فمن باب المرجعية نقول إن الذي يحق له أن يقول هذا حلال وهذا حرام . هذا حسن وهذا قبيح . هذا مباح وهذا غير مباح هو الخالق الذي خلق ، وهو العليم الحكيم . وهو الله الذي لا إله غيره .

ومن باب الواقع التاريخي نقول إن الناس ينحرفون نعم . ولكنهم حين ينحرفون لا يسلمون من نتائج انحرافهم ، بل يصيبهم الخلل والاضطراب والضنك ، والواقع المعاصر للغرب أكبر شاهد عليه ، ومعنى ذلك أن الثبات في هذه القيم هو الواجب الذي يجب أن يكون ، وأن وضع هذه القيم على الخط المتغير هو الذي يشيع الخلل والاضطراب في حياة الأمم والشعوب والجماعات والأفراد . فالثبات فيها إذن هو الأصل ، والتغيير هو الانحراف .

هذا بالنسبة للثوابت التي ثبتها الله ، والتي يجب أن تظل ثابتة لا تتغير مهما تغيرت أحوال الناس السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والمعلوماتية والتقنية ، لأنها لا تتعلق بهذه الأحوال المتغيرة ، إنما

249() سورة الروم [21] .
250() سورة النحل [72] .
251() سنتكلم في الفقرة التالية [الدين والفطرة] عن هذه القضية .
252() الواقع أن في تاريخ البشرية فترات من الهدى وفترات من الضلال ، فليست كلها انحرافا عن الطريق .

تتعلق بكيان " الإنسان " ، الذي هو إنسان منذ خلق ، وسيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها هو " الإنسان " .. لا هو حيوان ولا هو إله ..

فما الشأن بالنسبة للمتغيرات ؟ ما الذي يتغير ؟ ولماذا يتغير ؟

يحدث التغيير من احتكاك العقل البشري بالكون المادي ، فيتعرف على مكنوناته ، ويتعرف على خواص المادة ، فيسعى – بعقله وعضلاته – إلى تسخيرها لرغباته وحاجاته ، ثم يظل يحاول تحسينها وتجميلها وتكميلها حتى يصل بها إلى غاية ما يستطيع . ومن خلال هذه العملية الدائبة من المعرفة ، وتسخير نتائج المعرفة واستغلالها لتحسين أوضاع الإنسان وعمارة الأرض ، تتغير على الدوام في حياة الإنسان أمور بعد أمور .

ويجدر بنا أن نعرف أولا ما الذي يتغير على وجه الدقة ؟

هل تتغير دوافع الإنسان الأصيلة أم تتغير الطريقة التي يشبع بها الإنسان دوافعه ؟

نأخذ الدافع الأكبر في حياته : حب الحياة . هل يتغير من حيث الجوهر ؟ كيف يتغير ؟

ونأخذ حب الاستمتاع بما في الحياة من ألوان المتاع . هل يتغير من حيث الجوهر ؟ أم تتغير ألوان المتاع ؟

بفطرته يجب أن يكون له مأوى يأوي إليه . فيأوي – في بداوته وقلة حيلته – إلى الكهوف . ثم ينشئ أكواخا من غصون الشجر . ثم يبني أكواخا من الخشب المصنع ، أو بيوتا من الطين . أو بيوتا من الحجر أو قصورا شامخات .. ما الذي تغير ؟ حب المأوى ، والسكن إلى المسكن ، أم صورة المأوى ، وما يحتويه من أدوات الراحة ، وأدوات التجميل والزينة ؟

بفطرته يحب أن ينتقل من مكان إلى مكان ، يتعرف على الجديد ، ويزداد علما بالبيئة من حوله ، ويحاول استغلال ما يحصل عليه في تحسين أحواله . فينتقل – في بداوته – على قدميه في المساحة المحدودة التي يمكن لقدميه أن تحملاه في إطارها . ثم يستأنس دواب الحمل ، فتوفر عليه جهد التحرك بجسده ، ويستمتع بتحرك " الأداة " وهو فوقها مستقر ، وهي تحمله إلى مسافات أوسع مما كانت قدماه تصلان إليه . ثم تزيد معلوماته وقدراته فيستنبط أدوات للحمل أسرع وأكثر راحة ، فيخترع السيارة ، ويخترع الطائرة ، ويخترع الصاروخ ، ويدور الأرض كلها في ساعات .. ما الذي تغير ؟ رغبة التنقل أم الوسيلة ؟

بفطرته يحب " المعرفة " .. فيسعى – بقدر ما تتيح له أدواته ، وهي السمع والبصر وبقية الحواس – إلى التعرف على البيئة القريبة الملاصقة ، ثم المجاورة ، ثم ما تحمله إليه أدوات الحمل .. ويُعْملُ عقله في محاولة التعرف على طبيعة الأشياء التي يصادفها ، ومعرفة خواصها ، وكيفية الانتفاع بها ، فتتجمع عنده حصيلة من " المعلومات " تكون – مع التجربة والخبرة – جانبا من " المعرفة " المتاحة له . ويورث هذه المعلومات للجيل الذي يليه ، وهذا الجيل الجديد يجد معارف جديدة فيضيفها إلى معارفه الموروثة ، فتتسع دائرة المعرفة ، ثم تتعدد جوانبها وتتفرع ،

وتصبح مهمة التلقين أعقد وأطول مدى ، فيتخصص لها " معلمون " ويحتاج الأمر إلى أماكن للتعليم يتلقى فيها الصغار حصيلة المعرفة المتاحة .. ثم تتوسع دور التعليم فتصبح مدارس ومعاهد وجامعات ، وتتوسع الأدوات فتصبح كتباً وصحفا ومجلات .. وكمبيوترات !

ما الذي تغير ؟ حب المعرفة من حيث الجوهر ؟ أم وسائل المعرفة ؟

وقس على ذلك ما شئت !

وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن المستجدات كلها لا تضيف جديدا ولا تغير شيئا في حياة الإنسان ، بل هو في تغير دائم ، تختلف وتيرته من عصر إلى عصر ، ومن قطر إلى قطر ، ومن شخص إلى شخص .. ولكن الذي نريد أن نلفت النظر إليه أن هذا التغير الدائم – أيا كانت مساحته ، وأيا كانت أدواته ، وأيا كانت مجالاته – لا يغير الحقيقة الجوهرية للإنسان .. لا يغير دوافعه الأصيلة ، ولا أهدافه الأصيلة ، ولا غاية وجوده الأصيلة ، وهذا هو الذي تأبى الجاهلية المعاصرة أن تصدقه ، وعدم تصديقها إياه هو الذي يورثها الخبال !

مرة أخرى نعود إلى جوهر القضية ..

الخبل الأكبر هو في تصور " الإنسان " .. حيوان مرة ، وإله مرة ، حصيلتهما هما الحيوان المتأله ، الذي يعيش حياته الدنيا بلا معاد !

كلا ! إنه هو " الإنسان " ! لا حيوان ولا إله ! تتغير " صور " حياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والعلمية والمعلوماتية ، ويظل من حيث الجوهر هو الإنسان ، الذي خلقه الله ليكون خليفة في الأرض ، يعبد الله على بصيرة ويعمر الأرض بمقتضى منهج الله .

و " الثوابت " – لا المتغيرات – هي التي تحفظ له كيان الإنسان ، وتحقق له وجوده على مستوى الإنسان .

وحين تختل الثوابت .. حين توضع على الخط المتغير كما تضعها الجاهلية المعاصرة ، فما الذي يحدث في حياة الإنسان ؟!

تحدث كل الاختلالات الحادة التي تنتاب الإنسان المعاصر ، وتقلب حياته إلى " الضنك " الذي أنذره الله به ، رغم كل ما هو مفتّح له من الأبواب ، ورغم وصوله بالأمس إلى القمر وغدا إلى المريخ !

ما مر على البشرية عهد من الظلم والفساد والانحطاط الخلقي كما هو حادث في جاهلية القرن العشرين التي توشك أن تنتقل بكل خبلها إلى القرن الحادي والعشرين .

إن الثوابت هي " القيم " التي تحكم حياة الإنسان ، فحين يعيش الإنسان بغير قيم فكيف تكون حياته إلا قانون الغاب الذي يحكم السياسة والاقتصاد اليوم ، ويجعل المستضعفين من البشر فريسة لمن يسمون أنفسهم " الدول العظمى " ، وإلا التدني الأخلاقي والروحي الذي يشمل الصغار والكبار من الدول والشعوب والأفراد ، ويرسخ في الأرض عبادة الشيطان ؟!

أرُقِيٌّ هذا أم انتكاس ؟

إنما يحدث الرقي الحقيقي حين تحكم الثوابتُ المتغيراتِ ، فيزداد الإنسان رقيا كلما زاد علما على المنهج الرباني .

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) [253] .

أما حين تحكم المتغيرات الثوابت فتزيحها من الطريق فالله يقول :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [254] .

ثالثا : الدين والفطرة

الدين من الثوابت التي تشتمل عليها الفطرة ، ولكنا نخصه بحديث خاص لأهميته الخاصة ولأن الجاهلية المعاصرة تجتهد بكل قوتها لزحزحته من مكانه الثابت ، ووضعه على الخط المتغير ، الذي ينتهي به إلى الزوال !

ولا تداري الجاهلية المعاصرة موقفها من الدين ، إذ تقول صراحة إن الحياة البشرية قد مرت في ثلاثة أطوار ، طور السحر والخرافة ، وطور التدين ، وطور العلم . وأن كل طور قد أخذ دوره وانتهى وأفضى إلى ما بعده ، السحر أخلى مكانه للدين ، والدين أخلى مكانه للعلم ، والعلم هو المتربع على العرش اليوم .. وربما إلى نهاية الكون والحياة البشرية .

وحقيقة أن موجة الإلحاد قد بدأت تنحسر اليوم تحت مطارق العلم ذاته ، الذي لجأت إليه الجاهلية المعاصرة ليخلصها من سلطان الدين ! فالعلم اليوم هو الذي يرد الناس إلى الحقيقة التي أرادوا أن يهربوا منها وهي أن هذ الكون بما يحمل في أطوائه من دلائل القدرة المعجزة لا يمكن أن يكون قد خلق نفسه بنفسه ، ولا يمكن أن يكون قد وجد بغير موجد .. ولا بد أن يكون قد خلقه إله قادر بغير حد ، عليم بغير حد ، حكيم غاية الحكمة ، فعال لما يريد ..

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) [255] .

صحيح أن موجة الإلحاد قد بدأت تنحسر تحت مطارق العلم ، ومن لذع الألم الذي أحدثه الفراغ من الدين ، والجوعة الروحية التي تبحث اليوم عن الإشباع .

253() سورة فاطر [28] .
254() سورة الأعراف [175 – 176] .
255() سورة فصلت [53] .

ولكن المعركة مع الشيطان وأوليائه ليست سهلة ، ولن يخرج الناس من دنس الشهوات التي أغرقهم فيها الشيطان لينسوا ربهم ويكفروا به ، بمجرد أن تقول لهم : إن هذا دنس ، أو بمجرد أن تقول لهم : آمنوا بالله ورسله .

إنه جهاد .. وجهاد قد يطول . فقد تسلحت الجاهلية المعاصرة بكل سلاح ظنت أنه يحميها من عودة الدين ، وكان من بين أسلحتها – ومن أفتكها – إغراق الناس في الشهوات بحيث يكرهون من يحاول أن يخرجهم من وهدتهم ويمد لهم طوق النجاة لينجوا من الهلاك .

والمسلمون هم المؤهلون – بإسلامهم – أن يقودوا البشرية إلى البر الآمن ، ويخرجوها بإذن ربها من الظلمات إلى النور .. ولكنهم لن يفعلوا ذلك حتى يعودوا هم أنفسهم عودة صادقة إلى الإسلام ، فيمارسوه في عالم الواقع ، ويكونوا منه على وعي وبصيرة .

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [256] .

والعلم جزء من الدعوة .. ومن بين العلم الذي يخدم الدعوة بيان حقيقة الفطرة ومكان الدين منها .

* * *

أودع الله فطرة الكون كله – والإنسان جزء منه – أن يتجه إلـى الخالق ، ويسبح بحمده :

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً) [257] .

ولكن الإنسان تفرد في خلقه ، وتفرد كذلك في عبادته . خلقه الله من قبضة من طين الأرض ونفخ فيه من روحه ، فأكسبته النفخة العلوية الوعي والإرادة والحرية ، والإشراقة التي أذهبت عنه عتامة الطين .

وهو – في وضعه السوي – يعبد الله ويسبح بحمده عن طريقين اثنين ، كلاهما من أثر النفخة العلوية في قبضة الطين ، طريق " الوعي " وطريق " الوجدان " الذي نطلق عليه في مصطلحاتنا اللغوية طريق الروح .

متى يبدأ الوعي ؟

يظن كثير من الناس أن حالة " الوعي " التي تتجه إلى الخالق تأتي متأخرة في مرحلة النضج ، أو على الأقل في مرحلة ابتداء النضج ، أي مرحلة البلوغ .

ولكنا إذا دققنا الملاحظة نجد أن بداية الوعي تبدأ قبل ذلك بكثير ، منذ الطفولة !

256() سورة يوسف [108] .
257() سورة الإسراء [44] .

أرأيت إلى الطفل بعد أن يستكمل قدرته على النطق في الخامسة أو السادسة (وأحيانا قبل ذلك) إذ يرهق أبويه بالأسئلة عن كل شيء حوله : من الذي صنعه ؟ وكيف هو مصنوع ؟ ولماذا هو على الحالة التي هو عليها ؟

لماذا تشرق الشمس بالنهار ولا توجد في الليل ؟ وأين تكون قبل أن تشرق ؟

لماذا يظهر القمر في الليل ؟

لماذا كانت السماء زرقاء ؟

لماذا يزهر النبات ؟

كيف ينمو الشجر ؟

كيف ينزل المطر من السماء ؟

لماذا كان ورق الشجر أخضر ؟

كيف جئت إلى الوجود ؟ .

وعشرات من الأسئلة ومئات ، يتضجر الآباء مـن كثرتها ، وأحيانا لا يجدون لها إجابة !

إن إجابتها في الحقيقة عبارة واحدة ، هي هكذا كما خلقها الله !

إنه بدء تيقظ الفطرة عن طريق الوعي ، تسأل في الحقيقة عن الخالق لتتوجه إليه ! ومهمة التربية هي تركيز هذا الوعي ، ووضعه على المسار الصحيح .

* * *

متى يبدأ الوجدان طريقه .. طريق الروح ؟

لا ندري على وجه التحديد [258] .. ولعل الناس في هذا الأمر مختلفون .. منهم من يستيقظ وجدانه مبكرا ، ومنهم من يتأخر . منهم من تشرق روحه فيشتعل وجدانه ، ومنه من تخبو روحه حتى تكاد تنطمس .. ولكنا نحسب – من الملاحظات الفردية – أن نهاية مرحلة الطفولة وبداية فترة المراهقة هي الوقت الذي يتوقع فيه أن يتحرك الوجدان .. ومهمة التربية في جميع الأحوال هي التركيز على هذا الوجدان ليأخذ مساره الصحيح .

* * *

في الفطرة منافذ يدخل منها الإيمان إلى النفس الإنسانية ، تتلقى إيقاعات الكون ، فتوقظ الفطرة إلى عظمة الله ، وقدرته المعجزة ، وتفرده بالخلق والرزق والتدبير .. وتفرده بالألوهية ، فتتجه الفطرة إلى الله .

وفي كتاب الله توجيهات للفطرة ، تدخل من هذه المنافذ ذاتها التي أوجدها الله في النفس البشرية ، فتهتدي إن كتب الله لها الهداية ، وتستقيم على الطريق .

258() هذه نقطة حرية أن يدرسها علماء المسلمين دراسة علمية تجريبية .

أوسع المنافذ هي آيات الله في الكون . إن لها تأثيرا ضاغطا على الحس ، لا مهرب له منه إلا أن يتعمد الإنسان أن يوصد قلبه ، فلا يتلقى الإيقاع !

الكون بعظمته المعجزة ، ودقته المعجزة في آن واحد .. هذه الآماد التي لا يحدها البصر ، وهذه الأجرام التي لا يحصيها العد .. والدقة المعجزة في حركة الأفلاك ، وانتظام الليل والنهار والشمس والقمر .. بل الدقة المعجزة في ورقة الشجرة . في ريشة الطائر . في شذى الزهرة . في سقسقة العصفور .. بل الدقة المعجزة في تركيب العين . في تركيب الأذن . في حركة الدم في الشعيرة الرقيقة . في العصب الذي يحمل الإشارة للمخ . في عملية التفكير . في عملية التذكر . في الحياة بكل تفصيلاتها في الكائن الحي !

من ذا الذي يطيق حسه أن يبتعد عن تلقي الإيقاع إلا أن يكون – والعياذ بالله – قد أغلق النافذة عامدا لكي لا يتأثر بالإيقاع :

(لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) [259] .

* * *

الحركة .. سواء فـي الكون المادي أو في الحياة البشرية من المؤثرات التي توقظ الحس ..

من الذي يحرك الأجرام في السماء ؟ من الذي يحرك الأحداث في الأرض ؟

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِـنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [260] .

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَـنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) [261] .

* * *

ظاهرة الموت والحياة .. تشد الحس إلى " المحيي المميت " الذي بيده الموت وبيده الحياة ، يَقْدُرُ منهما ما يشاء لمن يشاء ، فيجري قدره بما شاء سبحانه ، لا يقف في طريقه حائل ، ولا يعترض طريقه معترض .

259() سورة الأعراف [179] .
260() سورة البقرة [164] .
261() سورة آل عمران [26 – 27] .

(**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)** [262] .

* * *

الغيب المستور كله .. الذي لا يملك الإنسان وسيلة إليه ، مع شدة تشوّقه إلى الاطلاع عليه .. يشد الحس إلى عالِم الغيب ، الذي لا يعزب عن علمه مثقال حبة من خردل .

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) [263] .

* * *

هل للحس البشري مهرب من إيقاعات الكون والحياة ، إلا أن يتعمد إغلاق المنافذ كلها لكيلا يصل إلى حسه صدى آيات الله :

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ) [264] .

الأصل في الإنسان الإيمان ، والكفر هو المرض الذي يصيب القلوب ، فتنحرف عن الأصل .

" إني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، فاجتالتهم الشياطين .. " [265] .

ومع ذلك تزعم الجاهلية المعاصرة على يد " علمائها ! " أن الدين ليس من الفطرة ! . أو أن الدين الذي أخلى مكانه للعلم ! أو أن الإنسان شب عن الطوق ولم يعد في حاجة إلى وصاية الله !

ولكن المرض الذي يصيب الفطرة لم يكن قط – في أي جاهلية سابقة – إنكار الخالق سبحانه وتعالى ، إنما كان هو الشرك .. تصور وجود آلهة أخرى مع الله .

وما أرسل رسول قط ليقول للناس إن هناك إلها ! فالفطرة – حتى في مرضها – تعرف ذلك دون إرسال رسول ! ولا قال رسول قط لقومه إن هناك إلها فاعبدوه ! . فالفطرة – حتى في مرضها – تتجه إلى الإله الذي تتصوره ، فتعبده وتسبح بحمده ، وتقدم له الصلوات ، وتقدم له القرابين .

إنما بعث الرسل كلهم ليقولوا للناس : **(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)** [266] .

بعثوا لتصحيح العقيدة ، لا لإيجاد العقيدة في النفوس ..

262() سورة الزمر [42] .
263() سورة الأنعام [59] .
264() سورة يونس [101] .
265() أخرجه الشيخان .
266() سورة هود [61] .

إلا الجاهلية المعاصرة .. أول جاهلية في التاريخ أنكرت وجود الله ، وتبجحت بالإلحاد ، بمعنى إنكار وجود الله ، وسمت هذا " علما !! " وأسست له مذاهب ، وأقامت له دراسات !!

* * *

وعالم الاجتماع المسلم حاشاه أن ينزلق إلى تصديق علم الاجتماع الجاهلي الذي ينكر أن الدين فطرة في النفوس ، ولو قال به ألف " عالم " كدوركايم ، أو غيره من المفكرين .

كما أن عالم الاجتماع المسلم لا يثقل على حسه الواقع المنحرف الموجود اليوم في الأرض ، ولا يصده عن ذكر الحق ، سواء أعجب الحق الناس أو لم يعجبهم ، واستجابوا له أو أعرضوا عنه .

الحق أن الدين فطرة :

(فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) [267] .

والحق أن الأرض – في القديم والحديث – تعج بالشرك :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) [268] .

والحق أن الله لا يرضى لعباده الشرك :

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) [269] .

والحق أن الدين الذي يطلبه الله من عباده ليس مجرد أن يؤمنوا بأنه سبحانه هو الخالق الرازق المدبر ، فقد كان العرب المشركون يؤمنون بذلك كله ويقرون به ، ولكنهم كانوا مع ذلك مشركين .

إنما الدين الذي يطلبه الله من عباده أن يؤمنوا به وحده ، ويعبدوه وحده ، ويتبعوا شرعه وحده ، ويتخذوا منهج حياتهم من منهجه وحده ، فيحلوا ما أحل الله ويحرموا ما حرم ويبيحوا ما أباح ويمنعوا ما منع .. وإلا فليسوا مؤمنين .

وقد يبدو للوهلة الأولى أن هذا درس في العقيدة . ولكنا حين نتحدث عن مكان العقيدة من الفطرة نكون في صميم علم الاجتماع . والفرق بيننا وبين " علماء " الاجتماع عندهم في هذا الشأن أننا نثبت – بالدليل – وهم ينفون بلا دليل ! .

ثم إن درس العقيدة عن المسلم ليس درسا منقطعا في ركن من الحياة ، إنما هو درس يصحبه المسلم معه ويحتاج إليه أينما ذهب في مجالات الفكر والحياة ! .

267() سورة الروم [30] .
268() سورة يوسف [106] .
269() سورة الزمر [7] .

رابعا : الأسرة والمجتمع

الأسرة – كما أشرنا من قبل – من الثوابت التي ثبّتها الله سبحانه وتعالى ، وشهد بثباتها الواقع التاريخي للبشرية ، وإن كانت الجاهلية المعاصرة تجادل في ثباتها .. لأول مرة في التاريخ .

والجاهلية المعاصرة لها ظروفها التي دفعتها إلى تحطيم الثوابت كلها ، والتمرد عليها ، ولكنها تدفع ثمن ذلك غاليا من أمنها وطمأنينتها وهناءة عيشها . فليس أحد حرا في أن يفعل في نفسه وحياته ما يشاء مخالفا لمنهج الله . ولئن كان الله سبحانه وتعالى لا يعاقب المتمردين على سلطانه في التو واللحظة ، إنما يمهلهم ، ويمد لهم إلى حين ، فالعبرة ليست بفترة الإمهال – التي هي فترة استدراج – إنما هي بالنتائج النهائية لا في الآخرة وحدها ، بل في الحياة الدنيا كذلك .

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ، ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ، مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ) [270] .

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) [271] .

(فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) [272] .

لقد تمردت الجاهلية المعاصرة على هذا الأصل الثابت الذي ثبّته الله لحكمة ، وجعل له روابط متينة تثبّته في القلب البشري وفي الحياة البشرية ، فأصابها من هذا التمرد كوارث كثيرة ما كانت تخطر على بال !

لقد فقدت الزوجية سكنها وهناءتها .

وإن هذا السكن لهو من الآيات التي يلفت الله النظر إليها ليتفكر فيها الناس :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [273] .

وحين حولت الجاهلية المعاصرة علاقة الزوجين – الذكر والأنثى – إلى علاقة جنس ، وعلاقة شهوة لا علاقة مودة ورحمة ، فقد فقدت السكينة التي خلق الله هذه الرابطة من أجلها ، فحين تبرد حرارة " الحب " [274] – وهي عرضة دائما لأن تبرد – تنفصم العلاقة ، ويتفرق الشركاء .. ويتشرد الأطفال .

270() سورة الشعراء [205 – 207] .
271() سورة الأعراف [182 – 183] .
272() سورة التوبة [82] .
273() سورة الروم [21] .
274() ورد في القرآن الكريم قوله تعالى (قد شغفها حبا) تعبيرا عن الشهوة الملتهبة ، بينما العاطفة الراسية الستمرة سماها " مودة ورحمة " .

ومشكلة جنوح الأحداث من المشاكل " الاجتماعية " الخطيرة التي تقلق بال الغرب – أو تقلق أصحاب الوعي فيه – فيجتمعون ، ويأتمرون ، ويتباحثون ، ثم لا يخرجون بحل حقيقي ، لأنهم يتصايحون وهم داخل القفص لا يخرجون منه ليحطموه ، ويستمتعوا بالطلاقة الحقيقية التي كتبها الله للمستجيبين له .

ومن وراء مشكلة الجنوح مشكلة الشذوذ .. وهو داء كتب الله اللعنة على من أصيب به ، ولكنه في حياتهم لا ينحسر ، بل يزداد انتشارا ، تنفخ في أواره الشياطين التي تسعى إلى تدمير البشرية .

كم من الطاقات يبددها الجنوح إلى الجريمة ، ويبددها الشذوذ ؟

وأي هناءة يحس بها الرجال والنساء والأطفال في هذا الجو الموبوء ؟

إن الأسرة هي النظام الرباني ، الذي جعل الله فيه السكينة والبركة والأمن والطمأنينة والنمو السوي للأجيال .

وللأسرة ولا شك مشكلاتها ، التي هرب منها الجاهليون بحماقة ليقعوا في أشد منها !

لا شيء في الحياة الدنيا يمثل نعيما خالصا بلا تنغيص ! فقد كتب الله الكَبَدَ والكدح على البشر في الحياة الدنيا – لحكمة يريدها – ثم كتب النعيم الخالص للمستجيبين إليه من عباده في الحياة الآخرة جزاء ما أطاعوه في الحياة الدنيا .

(لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ) [275] .

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) [276] .

" فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر " [277] .

ولكن مشكلات الأسرة ، وما تحمل في طياتها من معاناة ، جزاؤها في الحياة الدنيا هو هذا السكن والسكينة والمودة والرحمة والنمو السوي للأجيال .. فماذا كان جزاء تحطيم الأسرة ، والحياة على طريقة الحيوان .. بل أضل من الحيوان ؟!

لقد ظلت الجاهلية المعاصرة تعمل على تحطيم الأسرة كأنما هي موكلة بالقضاء عليها من قبل الشيطان نفسه .

كان أول خطوات التحطيم إخراج المرأة من البيت لكي تعمل ، بحجة تحريرها .. ورفع الظلم الواقع عليها ، ولقد كان الظلم واقعا عليها حقا ، ولكن " تحريرها " على هذا النحو لم يكن هو العلاج ، لا لها ولا للمجتمع الذي كان يظلمها .

ثم عُلِّمت على مناهج الرجل فاسترجلت ، وما كان هذا خافيا على المخططين .

275() سورة الحجر [48] .
276() سورة ق [35] .
277() أخرجه البخاري .

يتعلم الرجل ليعمل . وهذا دوره الذي خلق له . يكدح خارج البيت ليؤمن البيت ، ويؤمن الأسرة التي تقيم في البيت ، ويمهد لإنشاء جيل جديد سليم قدر الطاقة تحت إشراف ربة البيت ورعايتها .

ولكن المرأة التي تعلمت – أو عُلِّمت – على مناهج الرجل صارت مثله تريد أن تعمل .. فعملت .. ولكن لمن ؟!

حين خرجت لتعمل لم يعد هناك بيت ! ولم تعد هناك أسرة تقيم في البيت ! ولم يعد هناك مجال لإنشاء جيل جديد تحت رعاية ربة البيت !

ولم يكن ذلك خافيا على المخططين !

قالوا لها : لا بأس عليك : سننشئ المحاضن التي تقوم بدورك في البيت ، لتتفرغي أنت للعمل ! وأطفال المحاضن هم الذين يشكو المجتمع الغربي من ظاهرة الجنوح فيهم (Delinquency) .

ولعبت أيد كثيرة في أسعار الحاجيات فرفعتها رفعا تدريجيا دائبا لا يتوقف ، مع خفض القيمة الشرائية للعملة خفضا دائبا بنفس المقدار . بالإضافة إلى عملية دائبة أخرى تحول الكماليات إلى ضروريات ، وتبث – بالإعلان – روحا من التلهف الدائم على الشراء . ومن ثم لم يعد يكفي دخل الرجل وحده للقيام بتكاليف " البيت ! " المكتظ بالأشياء الخاوي من الحياة والأحياء ! وصار عمل المراة أمراً لا معدى عنه ، لتتحمل نصيبها من التكاليف !

ولم يكن ذلك خافيا على المخططين .

كيف تنشأ " الأسرة " في هذا الجو ؟ وطرفاها مشغولان بالعمل ، إن لم يكونا مشغولين كذلك بالاستمتاع على مذهب " متع نفسك Enjoy yourself " والأولاد في المحاضن .. أو في الطريق ؟!

ثم تولت مناهج التعليم ووسائل الإعلام تخريج أجيال " متحررة " لا تقبل التدخل في " حريتها الشخصية " ! وتُعَوَّد على الانضباط الشديد في كل شيء إلا في القيم الخلقية ، التي صورت لهذه الأجيال – ولمربّي الأجيال أيضا – على أنها قيود سخيفة لا معنى لها ، وأنها كوابت تكبت الشخصية وتكبت " النشاط الحر ! " فضلا عن كون التمسك بها يعد " رجعية " بالية لا تتناسب مع حركة " التطور " !

وتضافرت العوامل كلها – مضافا إليها المخدرات ، ومسلسلات التلفاز والفضائيات – لإخراج الجيل المنحل الذي عهد إليه الشيطان بتدمير " الإنسان " ! [278]

* * *

والباحث المسلم في علم الاجتماع عليه أولا أن يفطن لهذا كله ، ثم عليه أن يبين للناس حرص الإسلام الشديد على الأسرة ، والحكمة من هذا الحرص الشديد ، البادي في التشريعات والتوجيهات ، والممارسة التاريخية لهذه الأمة قبل أن تتفشى فيها العدوى من الجاهلية المعاصرة .

278() اقرأ – إن شئت " دور اليهود في إفساد أوربا " من كتاب " مذاهب فكرية معاصرة " .

إن الأسرة هي المحضن الطبيعي الذي تتربى فيه الأجيال على مكارم الأخلاق ، ولا توجد – حتى الآن – مؤسسة أخرى يمكن أن تقوم بهذا العمل الضخم بالصورة التي تقوم بها الأسرة .. إنما تقوم المؤسسات كلها – حين يحسن توجيهها وتنظيمها – بالمساعدة في هذه المهمة الرئيسية ، التي تقوم بها الأسرة بطريقة شبه تلقائية ، لأنها تملك العنصر الأهم ، ذا الفعالية العالية فـي العملية التربوية ، وهو الحب الفطري الذي يكنه الوالدان لأبنائهما ، ويكنـه الأبناء للوالدين ، والذي لا يتوافر – بحكم الفطرة – بالقدر اللازم إلا بين الآباء والأبناء !

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً) [279] .

خامسا : علاقات الفرد والمجتمع

حرصت الجاهلية المعاصرة ، وعلم الاجتماع الجاهلي معها ، على تصوير العلاقة بين الفرد والمجتمع على أنها علاقة خصام وصراع ، ولا مجال فيها لعلاقة ود صادق ولا تعاون قلبي !

وسواء كانت الجاهلية – في المعسكر الرأسمالي – تعيش الفردية الجانحة ، أو كانت – في المجتمعات – الاشتراكية قبل انهيار الشيوعية – تعيش الجماعية الطاغية ، ففي كلتا الحالتين لا تتفق مصالح الفرد والمجتمع .. ولا يصطلحان !

في الأمم التي تعيش الفردية الجانحة يصور المجتمع على أنه الطاغية الجبار ، الذي يريد أن يكبت كيان الفرد ، ويخضعه لمصلحته هو على حساب مصلحة الفرد ، ويفرض عليه من القيود ما يتعارض مع حريته الشخصية ومع نموه الحر .. ويوجه الفرد دائما إلى التمرد على تلك القيود (التي تتمثل فيها في الواقع الثوابت المتعلقة بالقيم الأخلاقية والدين والزواج والأسرة) بينما تمارس الرأسمالية حريتها كاملة في الطغيان والاستغلال والاستعباد ، دون أن يجرؤ أحد على الحد من سلطانها الطغياني !!

ويستوي أن يكون المحرض على تكريه الفرد في المجتمع وتبغيضه لتدخله في شئونه " عالم اجتماع " كدوركايم الذي يقول : " إن ضروب السلوك والتفكير الاجتماعيين أشياء حقيقية توجد خارج ضمائر الأفراد ، الذين يجبرون على الخضوع لها في كل لحظة من حياتهم [280] .. أو " عالما نفسيا " كفرويد ، الذي يقول في كل كتبه إن " السلطة " المتمثلة في الدين والوالدين والمجتمع هي التي تصيب الفرد بالعقد النفسية

279() سورة الإسراء [23 – 24] .
280() سبقت الإشارة إليه .

والاضطرابات العصبية [281] .. أو كان " كاتبا " مثل سارتر الذي يقول إن " الجحيم هو الآخرون " [282] .. أو " مربيا " مثل " جون ديوي " الذي يقول " إن التربية يجب أن تكون عملية متحققة بنفسها في ذات نفسها دون تدخل من أي سلطة خارجية لتفرض هدفا خارجا عن العملية التربوية يعوق النمو الحر للفرد [283] . أو إيحاءً مسموما في فيلم سينمائي أو قصة أو مسرحية أو مسلسل تليفزيوني .. ففي النهاية يلتقي هؤلاء جميعا في أن " الفرد " يجب أن تتاح له الحرية إلى أقصى الحدود ، وأن " المجتمع " ليس له أن يفرض القيود !

إنه ذات الشعار الذي رفعته الرأسمالية اليهودية أول مرة " Laissez Faire , Laissez Passer " دعه يعمل (ما يشاء) دعه يمـر (من حيث يشاء) ! وليذهب المجتمع إلى الجحيم !

أما في الأمم التي كانت تعيش الجماعية الطاغية ، فالفرد يصور فيها على أنه ذلك الأناني البغيض الذي يريد أن يحقق كيانه على حساب " المجتمع " ، وأنه بأنانيته الطاغية هو العدو الذي ينبغي للمجتمع أن يسحقه تحت أقدامه ، ويتخلص منه ولو بالقضاء الكامل عليه !!

في الحالين لا صلح ولا وئام !

وقـد يكون هذا وصفا صادقا للمجتمعات الجاهلية الجانحة ذات " اليمين " وذات " اليسار " !

ولكنه ليس هو " الإنسان " كما ينبغي أن يكون !

والمجتمع المسلم له أوصاف غير تلك الأوصاف !!

(فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ، وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) [284] .

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ، وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ، وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ، إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ،

[281] راجع بصفة خاصة كتابه " The Ego and the Id " وكتابه Totem and Taboo .

[282] عنوان مسرحية لسارتر .

[283] يكرر ديوي هذا الكلام في كل كتاباته ، ولكنه ينسى فيقول إن هدف العملية التربوية يجب أن يكون هو الديمقراطية ! أي أنه يسمح بوجود هدف خارجي ، بشرط ألا يكون هو الدين ! فهو وحده هو المحظور !

[284] سورة الشورى [36 – 38] .

وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ، وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ، وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ، أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ، خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) [285] .

والمجتمع المسلم ليس مجموعة من الملائكة ، ولن يكون البشر مجتمعا من الملائكة في يوم من الأيام ! إنهم بشر .. يتخاصمون ويتنازعون ويقع بينهم الصدام والصراع .. ولكنهم مع ذلك يظلون أرقى نفسيا وخلقيا من الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولا يدينون دين الحق .

وشهادة التاريخ أولى بالاعتبار .

لقد ظل المجتمع المسلم إلى ما قبل نكسته الحالية التي تجمعت فيها كل الأمراض من الداخل والخارج ، أقل المجتمعات البشرية جرائم ، وأقربها إلى روح المودة والتسامح والتعاون على البر والتقوى ، وأقلها تناولا للخمر والمخدرات ..

ولنأخذ هذه المعايير الثلاثة : الخمر والمخدرات والجريمة ، ولنتدبر دلالتها .

الخمر والمخدرات عمليتا هروب من الواقع ، ومحاولةٌ لإيجاد " واقع " آخر – في الخيال – غير الواقع الحقيقي الذي هرب منه مدمن الخمر والمخدرات ..

لماذا يهرب الناس من واقعهم ؟! هل يسعون إلى الهروب منه لو كانوا سعداء به ؟

والجريمة – كما هو واضح – عدوان من الفرد على المجتمع ، فهل يلجأ إلى العدوان ونفسه منسجمة مع ما حولها ، راضية بالعلاقات بينها وبين الآخرين ؟

فإذا اجتمعت الأمراض الثلاثة كما هي مجتمعة اليوم في المجتمع الغربي ، فدلالتها واضحة : أن العلاقات قد ساءت بين الفرد والمجتمع ، وأن الفرد غير سعيد بواقعه يريد أن يهرب منه .

ودليل المخالفة واضح كذلك .. فحين تقل نسبة الخمر والمخدرات والجريمة في المجتمع – كما كانت قليلة في المجتمع المسلم إلى ما قبل نكسته الأخيرة – فمعنى ذلك أن علاقات الفرد والمجتمع جيدة ، وأن الفرد ليس ناقما على مجتمعه ، ولا المجتمع ناقم على أفراده إلى الحد الذي يؤدي إلى انتشار الجريمة [286] .

285() سورة الفرقان [63 – 76] .

286() لا يوجد مجتمع بشري – ولا مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم – يخلو خلوا كاملا من الجريمة . ففي مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم من سرق ومن زنا ومن شرب الخمر ، وأقيم عليه الحد . ولكن هناك فرقا واضحا لا ينكره إلا مغالط ، بين مجتمع لا تحدث فيه الجريمة إلا شذوذا يستنكر ، ومجتمع الجريمة فيه شيء عادي

وإذن فقد وجد في واقع التاريخ ، ولفترة غير قصيرة من الزمن ، مجتمع لا يحس الفرد فيه أنه مضغوط مكبوت ، مغلوب على أمره ، يتحين الفرص ليتمرد على المجتمع وينقض عليه ، ولا يحس المجتمع أن الأفراد فيه أعداء متربصون يجب سحقهم والقضاء عليهم ..

فكيف حدث هذا الانسجام بين الفرد والمجتمع على هذه الصورة في عالم الواقع ؟

المفتاح في الثوابت !

فحين يلتقي الفرد الواحد والأفراد الآخرون الذين يكونون المجتمع على الثوابت ، يقل الصراع إلى أقصى حد ، ويحس المجموع بالروابط الذي تشد بعضه إلى بعض ، فيصبح كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " [287] .

والرباط الأعظم في هذه الروابط بطبيعة الحال هو الدين ، هو العقيدة في الله واليوم الآخر . فهو العقدة التي تضم الخيوط جميعا ، وتربطها بعضا إلى بعض .

ولا يخرج الناس مع ذلك عن بشريتهم ، ولا يصبحون ملائكة ، وتظل فيهم دوافع البشر ، وتعتمل في نفوسهم نوازع البشر ، ولكن على مستوى " الإنسان " لا على مستوى الحيوان !

* * *

المجتمع – في حقيقته – نابع من الفرد .

وقد اجتهد دوركايم بصفة خاصة – وإن كان قد اشترك معه كثيرون غيره – في تصوير المجتمع على أنه قوة ضاغطة على الفرد من خارج كيانه ، تسيّره على غير هواه !

" إن ضروب السلوك والتفكير الاجتماعيين أشياء حقيقية توجد خارج ضمائر الأفراد ، الذين يجبرون على الخضوع لها في كل لحظة من لحظات حياتهم " .

وقد سبق أن أشرنا إلى التملص – غير العلمي – الذي وقع فيه دوركايم حين اضطر أن يعترف أن الظواهر الاجتماعية تنشأ نتيجةً لعدد كبير من الضمائر الفردية ، ومع ذلك فهي في زعمه توجد خارجة عنا !

" ولكن لما كان هذا العمل المشترك (الذين تنشأ عنه الظواهر الاجتماعية) يتم خارج شعور كل فرد منا ، وذلك لأنه نتيجةٌ لعدد كبير من الضمائر الفردية ، فإنه يؤدي بالضرورة إلى تثبيت وتقرير بعض الضروب الخاصة من السلوك والتفكير ، وهي تلك الضروب التي توجد خارجة عنا ، والتي لا تخضع لإرادة أي فرد منا " !! [288] .

دائم الحدوث .

287() متفق عليه .

288() سبقت الإشارة إليه .

وندع دوركايم لتخبطه " العلمي ! " – وإن كنا نعجب كيف لا يرى أنصاره المدافعون عنه ذلك التخبط – ونسأل أنفسنا : من أين ينبع المجتمع ؟

إن الكائن البشري ذو شعبتين في آن واحد ، يكوّنان في مجموعهما شخصيته : شعبة فردية تسعى إلى إثبات الذات وتوكيدها ، وشعبة اجتماعية تسعى إلى الاجتماع بالآخرين ، والأنس بهم ، والاشتراك معهم في بعض الأمور على الأقل إن لم يكن في كثير من الأمور .

كلتا النزعتين أصيلة فيه .. ليست إحداهما مفروضة عليه من خارج كيانه !

والمرجع في ذلك هو الواقع ! .

مَنْ مِنَ البشر يحب أن يعتزل الناس ويعيش مفردا لا يتصل بأحد ولا أحد يتصل به إلا أفراد نادرون لا يحسب لهم حساب في التعداد البشري الكثيف الذي يبلغ اليوم مليارات ؟!

وبقية البشر – الطبيعيين – ما حالهم ؟

حالهم هو الذي ذكرناه .. تارة يبرز في الإنسان ذاته الفردية ، فيحب أن يثبت ذاته بوسيلة من الوسائل ، وتارة يسعى – مختارا مشتاقا متلهفا – إلى مصاحبة الآخرين والاشتراك معهم في أمر من الأمور .

بل إنه في اللحظة التي يحب أن يثبت ذاته ، لا يكتفي بأن يثبت ذاته بينه وبين نفسه بعمل من الأعمال ، إنما يسعى إلى الاجتماع بالآخرين ليثبت ذاته بينهم على نحو من الأنحاء . وصحيح أنه يضطر أحيانا لأن يتنازل عن بعض رغباته الخاصة من أجل وجود الآخرين من حوله . ولكنه يفعل ذلك – أو يتقبله – لقاء إشباع رغبته الأخرى في الاجتماع مع الآخرين .

كيف يقول عاقل إذاً إن " المجتمع " مفروض على الفرد من خارج كيانه ؟

إنما يحدث التنازع بين النزعتين الفردية والجماعية – كما يحدث بين نزعات كثيرة في كيان الإنسان – حين تزيد " الجرعة " في إحداهما عن القدر اللازم الذي تتوازن به الأمور ، أو حين تثور في النفس نزعات متضاربة في وقت واحد .

وزيادة الجرعة إما أمر عارض ، يعود بعده الإنسان إلى حالته الطبيعية فلا يعتبر مرضا ، وإما شيء دائم أو غالب ، فعندئذ يعتبر حالة مرضية .

إن الإنسان في حالته الطبيعية دائم التقلب بين نزعاته المختلفة ، وهذا من الإعجاز في خلقه فقد خلقه الله متعدد الجوانب ، ليقوم بمهمة الخلافة في الأرض ، والإنشاء والتعمير فيها ، وهي مهمة ذات مجالات مختلفة سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية وخلقية وفنية وعملية وتقنية .. ولو لم يكن الإنسان متعدد الجوانب لعجزه عن القيام بالمهمة الملقاة على عاتقه . ولكن الله لا يكلف نفسا إلا في حدود وسعها ، وقد زود سبحانه الإنسان بكل الأدوات اللازمة له ، ومن بينها تعدد النزعات ، وتعدد

الجوانب ، وسهولة الانتقال – أو الانزلاق [289] ! – من جانب إلى جانب ، ومن وضع إلى وضع ، ومن مجال إلى مجال .

ويحدث أحيانا – كما قلنا – أن تتعارض في نفسه بعض الجوانب وبعض النزعات ، إما لتدافعها في وقت واحد – وكلٌّ منها يريد الساحة خالصة له – وإما لزيادة عارضة أو دائمة في جرعة من الجرعات .

فأما التدافع العارض ، وأما الزيادة العارضة في الجرعة ، فسرعان ما تعود إلى وضعها السوي ، فقد زود الله الإنسان بجهاز ضابط ، يحقق الاتزان النفسي في الحالة السوية ، وهو من المزايا التي أكسبتها النفخة العلوية من روح الله لقبضة الطين .

أما التدافع الدائم الذي يوقع الحيرة والاضطراب والتردد وعدم الاستقرار ، أو الجنوح الدائم إلى جانب واحد على حساب الجانب المقابل [290] فهو مرض نفسي يخرج من دائرة حديثنا هنا ، فكلامنا كله متعلق بالفطرة السوية ومكان النوازع المختلفة منها .

وفي المجتمع المتوازن ، الذي تحكمه " الثوابت " ، فتعيد إليه حالة التوازن كلما اضطربت موازينه ، يأخذ الفرد والمجموع كلٌّ مكانَه بأقل قدر من الصراع والتنازع ، وتكون الأداة التي تجمعهما وتربط بينهما هي هذه الثوابت ذاتها ، فإنها – في صورتها الربانية – تمثل التوازن ، وتدعو إلى التوازن ، وتؤدي إليه .

(لَقَـدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) [291] .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً) [292] .

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) [293] .

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) [294] .

توازن شامل يشمل كل كيان الإنسان ، ويشمل فيما يشمل علاقة الفرد مع غيره من الأفراد ، الذين يكوّنون " المجتمع " بالنسبة إليه [295] .

289() لانقصد الانزلاق بمعنى الهبوط من أعلى إلى أسفل وإنما نقصد الانتقال السهل من حالة إلى حالة بما يشبه " التزلج " على الجليد !

290() اقرأ إن شئت فصل " خطوط متقابلة " وفصل " الانحراف والشذوذ " من كتاب " دراسات في النفس الإنسانية " .

291() سورة الحديد [25] .

292() سورة البقرة [143] .

293() سورة القصص [77] .

294() سورة الملك [15] .

295() المجتمع في حقيقته هو مجموع الأفراد مضافا إليه العلاقات التي تحكم اتصال الأفراد بعضهم ببعض ، وكل فرد يشعر بفرديته من جهة ، ويشعر أن " الآخرين " بالنسبة له هم " المجتمع " ، ومن ثم فإن العلاقة في حقيقتها هي علاقة كل فرد بكل فرد ، وإن قضية الفرد والمجتمع هي قضية علاقات دائرية تشمل كل فرد بمفرده ،

وليس في هذه العجالة مجال للتفصيل ، فهذا شأن الكتابة المتخصصة في علم الاجتماع . ولكنا نقول باختصار إن المنهج الإسلامي يكلف الفرد المسلم تكاليف في نفسه خاصة ، كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، والعبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج ، ثم تكاليف موجهة للآخرين ، بدءا بالوالدين والأقربين وانتهاء بالمجتمع كله ، بل بالبشرية كلها .. وفي الوقت ذاته يكلف المجتمع تكاليف كالجهاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتعاون على البر والتقوى .. فتلتقي التكاليف في النهاية بين الفرد والمجتمع ، وتجمعهما في اتجاه واحد ، متوجه إلى الله ، عامل على رضاه .. وهذا هو الذي يجعل الفرد في المجتمع المسلم لا يحس أن المجتمع ضاغط على كيانه ، قاهر لوجوده الفردي ، ويجعل المجتمع لا يحس أن الفرد عدو لا يصلح له إلا السحق !

أما الفرد الشاذ الجانح فله علاجه في المنهج الرباني بحيث لا يقلق أمن المجتمع . علاج يبدأ بالتربية وينتهي بالعقوبة الرادعة إذا أصر على انحرافه .

وأما المجتمع الشاذ الجانح فله علاجه كذلك في المنهج الرباني ، وهو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتلك مهمة الدعاة ، أو الردع ، وتلك مهمة أولياء الأمور : " يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن " .

والدارس المسلم في علم الاجتماع من مهامه أن يتبين تلك العلاقة الوطيدة بين الفرد والمجتمع في الكيان الإنساني السوي ثم يبينها بدوره للدارسين . وأن يبين لهم كذلك أن الحالة السيئة التي وصلت إليها الأمة الإسلامية ، من تفكك الروابط الاجتماعية ، وانتشار الأنانية البغيضة ، وحرص كل فرد على أن يصل إلى أهدافه – المشروعة وغير المشروعة – على حساب الآخرين ، هذا كله لا علاج له إلا بالعودة إلى الإسلام !

وتشمل في الوقت ذاته كل الناس في تشابك لا ينفصم إلا في حالة الانحراف .

(2)
في التاريخ

بين علم الاجتماع وعلم التاريخ جدار رقيق ، وفي الجدار نوافذ يطل منها كل منهما على الآخر ليطلع على ما عنده ! فالدارس في علم الاجتماع يحتاج أن يطلع على مسارات التاريخ ، ليعرف سير الظواهر الاجتماعية وجودا وعدما ، وترابطا وتفككا ، وثباتا وتغيرا ، ودارس التاريخ يحتاج إلى تفهم الظواهر الاجتماعية من أجل تفسير الأحداث التاريخية وتقويمها [296] .. ولا غنى لأحدهما عن الآخر .

وقد توسعنا – شيئا ما – في الحديث عن بعض الموضوعات التي ينبغي لدارس الاجتماع المسلم أن يركز عليها ، ولا نحتاج لمثل ذلك في التاريخ ، لأن المكتوب في علم الاجتماع الإسلامي حتى الآن قليل للغاية ، بينما توجد كتابات في " التفسير الإسلامي للتاريخ " وإن كانت الفكرة ما تزال غريبة على الكثيرين من دارسي التاريخ !

والمؤرخ المسلم لن يخترع تاريخا جديدا للبشرية . ولكنه على وجه التأكيد سيجد نفسه مختلفا مع المؤرخين الآخرين في الأمرين اللذين أشرنا إليهما آنفا ، وهما التفسير والتقويم ، وهما في الحقيقة لب دراسة التاريخ . فليس التاريخ مجرد سرد للوقائع التاريخية – وإن كان هذا جزءا أساسيا من عمله – وإنما هو محاولة لربط الأحداث بعضها مع بعض برباط يجعل وجودها وتسلسلها على النحو الذي وقعت به مفهوما عند القارئ – وهذا هو التفسير – ثم يستخرج العبرة المستفادة منها ، وهذا هو التقويم .

ومن أجل التفسير والتقويم – اللذين هما لب دراسة التاريخ – فلا بد من الرجوع إلى القضية الرئيسية التي نحتاج إلى الرجوع إليها مع كل علم من العلوم الاجتماعية ، وهي قضية " الإنسان " : ما هو ؟ ما تكوينه ؟ ما حدود طاقاته ؟ ما غاية وجوده ؟ ما موقفه من السنن التي تحكم حياته ؟ ما موقفه من الضغوط الواقعة عليه من داخل نفسه أو من خارجها ؟ ما معيار إنجازاته ؟

وإذا لم نحدد الإجابة الواضحة على هذه الأسئلة فكيف نفسر التاريخ ؟ وكيف نقوّم أحداثه ؟ وماذا يبقى منه إلا أحاديث مفككة ، قد تصلح لتزجية الفراغ ، ولكنها لا تصلح للعبرة ولا تحقق الهدف من دراستها ، بينما الله سبحانه وتعالى يوجهنا توجيها واضحا للسياحة التاريخية في الأرض ، واستخراج العبرة من أحداث التاريخ :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ..) [297] .

296() المقصود بالتقويم هو تقدير القيمة ، وكثير من الكتاب يستخدمون كلمة تقييم بدلا من تقويم والصواب التقويم .

297() سورة الروم [42] .

وحين لا نهتدي إلى الإجابة الصحيحة عن هذه الأسئلة ، أو حين تأخذنا أهواؤنا أو ضغط ظروفنا بعيدا عن الصواب في إجابتها ، فسنخرج ولا شك بنتائج غير التي نحن حريصون على أن نصل إليها حين تستقيم تصوراتنا على النهج الصحيح ، وحين نرجع إلى المرجع الصحيح .

وهنا ستقوم نقطة الخلاف الرئيسية بين المؤرخ المسلم وغيره ، أو قل إن شئت بين التفسير الإسلامي والتفاسير الجاهلية للتاريخ .

حين يكون تصورنا للإنسان أنه ذلك الحيوان الدارويني المتطور ، المتأله في ذات الوقت يجعل نفسه هو المرجع فيما يأتي وما يدع من الأعمال ، وعدم الخضوع لمرجع خارجي عنه ، والذي يعيش للدنيا وحدها ، ولا يؤمن بالمعاد ولا يعمل له ، فكيف يكون معيار إنجازاته ؟

سيكون هو معيار الحيوان ، مع إضافة التطور الذي حدث لذلك الحيوان : الغلبة من جهة والاستمتاع من جهة أخرى ، باستخدام العقل المفكر ، والأدوات والآلات التي يخترعها ذلك العقل .. ولا زيادة .

وبهذا المعيار المنحرف يكتب المؤرخ الغربي عن " عظمة " الإمبراطورية الرومانية ، وغيرها من الإمبراطوريات ..

فعلى أي أسس قامت الإمبراطورية الرومانية ؟ على أسس الجبروت الغاشم ، والقوة الحربية القاهرة ، التي تخضع الآخرين لسلطانها ، وتستعبدهم لخدمتها .. فهل هذا معيار " إنساني " ؟ أم إنه قانون الغاب .. القوي يأكل الضعيف ، أو يزيحه من الطريق ؟ مع عمل الاعتبار بطبيعة الحال للفارق بين الحيوان الأصلي والحيوان المتطور : أن الأول يستخدم عضلاته وحدها في صراع البقاء ، أما الثاني فيستخدم عقله وأداوته ، فتكون وسيلته في استعباد الآخرين وقهرهم هي القوة الحربية ، والقوة السياسية ، والقوة العلمية ، والبراعة في استخدام الأدوات.. ولكن الهدف هو ذاته ، الذي يصارع من أجله الحيوان !

وقراءة التاريخ على هذا النحو تفسد كل عبرة التاريخ .

إن المؤرخ المسلم لن يغفل – ولا يجوز له أن يغفل – أن الرومان كانوا بارعين في الحرب ، بارعين في السياسة ، بارعين في التنظيم ، عباقرة في العمارة المادية للأرض . في إنشاء المدن وتزويدها بالماء وتزيين مبانيها ، وإنشاء الطرق وصيانتها ، بارعين في فنون كثيرة أخرى .. ولكنه بحكم تصوره " للإنسان " وغاية وجوده ، سيركز تركيزا شديدا على " القيم " المفقودة في الإمبراطورية الرومانية – وغيرها من إمبراطوريات التاريخ – التي على رأسها الإيمان بالله واليوم الآخر ، وعمادها القيم الأخلاقية الثابتة التي يجب أن تحكم حياة الإنسان .

وبماذا يخرج المؤرخ المسلم في النهاية حين يركز على هذه القيم وفي الوقت ذاته لا يغفل كل الإنجازات المادية ، وكل النجاحات الأرضية التي وقعت للإمبراطورية الرومانية أو غيرها من الإمبراطوريات ؟

يخرج بأنها حضارة جاهلية .. وما أكثر الحضارات الجاهلية في التاريخ !

حضارة من ناحية العمارة المادية للأرض ، وجاهلية بالمعنى القرآني .. الجهل بحقيقة الألوهية ، واتباع غير ما أنزل الله [298] .

ولا تعارض على الإطلاق – بحسب السنن الربانية – بين كونها جاهلية وبين التمكين الذي نالته في الأرض . والقوة الهائلة التي حصّلتها ، فذلك وارد – كما بينا من قبل – في السنن الربانية بكل جلاء .

(كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً) [299] .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ) [300] .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ..) [301] .

ولمعترض أن يقول إن هذا " إسقاط " لمعايير متأخرة على حقب زمنية متقدمة ، مما لا يجوز " علميا ! " لأنه يفسد البحث العلمي !

ونقول له : إن هذا يكون صحيحا لو كانت هذه المعايير متأخرة حقيقةً ، ولم تكن قائمة في الوقت الذي قامت فيه تلك الإمبراطوريات . فكيف إذا كانت قد أنزلت منذ آدم وحواء ؟!

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [302] .

وكيف إذا كانت كل الإمبراطوريات المعروفة تاريخيا قامت بعد الطوفان ، ووعت ذاكرتها أحداث الطوفان ؟

(إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِـي الْجَارِيَةِ ، لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) [303] .

والحصيلة النهائية للإمبراطورية الرومانية أنها راسبة في " مادة الرسوب " وإن أخذت النهايات العظمى في بقية المواد !

والجاهلية الفرعونية كذلك !

إنها جاهلية برعت في أمور كثيرة وصلت فيها إلى حد العبقرية ، كما يوحي بذلك بناء الأهرام ، والهندسة الدقيقة التي روعيت في بنائها ، وكذلك عملية التحنيط التي ما زال سرها خافيا حتى اليوم ، بالإضافة إلى صناعات أخرى كثيرة وفنون متعددة .. وفي الوقت ذاته كان لها سلطان

298() راجع تفسير مصطلح الجاهلية عن ابن تيمية رحمه الله في كتاب " اقتضاء الصراط المستقيم " ص 78 – 79 .
299() سورة الإسراء [20] .
300() سورة هود [15] .
301() سورة الأنعام [44] .
302() سورة البقرة [28 – 29] .
303() سورة الحاقة [11 – 12] .

وطيد سواء في بلادها الأصلية – مصر – أو في البلاد التي استولت عليها في فترات التوسع الحربي ، الذي كونت فيه إمبراطورية ..

ولكنها راسبة في " مادة الرسوب " التي يعتبر من رسب فيها راسبا ولو نجح في المواد الأخرى كلها بأعلى الدرجات !

وفي مصر بالذات أرسل نبيان على وجه التأكيد هما يوسف وموسى عليهما السلام ، مع احتمال كبير أن يكون قد أرسل قبلهما رسول ممن لم يقصصهم الله في القرآن .

(وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ، رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً) [304] .

والذي يرجح إرسال ذلك الرسول أن " كتاب الموتى " يحمل وصفا دقيقا لليوم الآخر ، وما يجري فيه من الحساب ووزن الأعمال ، والصيرورة إلى الجنة أو النار مما لا يفكر فيه البشر من تلقاء أنفسهم إلا أن يخبرهم بذلك نبي مرسل . كما أن المصريين كانوا يعرفون بدليل قول النسوة لما انبهرن بجمال يوسف عليه السلام :

(َقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) [305] .

وقول فرعون وهو يصد قومه عن الإيمان بموسى عليه السلام :

(فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ) [306] .

ومع إرسال الرسل إليهم فقد ألّهوا الفرعون وعبدوه ، وكانوا يقدمون له الصلوات والقرابين ، وقبلوا منه قوله : **(يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)** [307] .

والمؤرخ المسلم وهو يتناول تاريخ الجاهلية الفرعونية سيسلك ذات الطريق الذي يسلكه مع كل الجاهليات الأخرى ذات البراعات ، وذات العمارة المادية الفائقة للأرض . يسجل لها كل نجاحاتها في المواد التي نجحت فيها ، وكل انتصاراتها الحربية والسياسية والإدارية والعلمية والعمرانية ، لا يبخسها شيئا من ذلك ، ثم يسجل لها أنها رسبت في " مادة الرسوب " ، وأنها لذلك تعتبر راسبة رغم كل ما لديها من البراعة ، ومن نقط القوة في كثير من المجالات ..

وليس في ذلك ظلم ولا افتئات .. ولا افتعال .

إن درس التاريخ هو درس تربية في ذات الوقت .. بل هو من أعظم الدروس التربوية حين يلتفت إلى جانب العبرة فيه .. فعلى أي شيء نربي أبناءنا ؟!

304() سورة النساء [164 – 165] .
305() سورة يوسف [31] .
306() سورة الزخرف [53] .
307() سورة القصص [38] .

هل نربي أبناءنا – نحن المسلمين – على الانبهار والتمجيد لمن عصى الله وتجبر على الناس ، وادعى الألوهية ، واتخذ الناس عبيدا له ؟! والذين بيّن الله لنا مصيرهم في الآخرة : أنهم مخلدون في نار جهنم ؟! وخاصة ونحن لا ننفي عنهم كل البراعات التي برعوا فيها ، ولا نخفي شيئا مما كانوا ناجحين فيه ..

بل نحن حريصون على إبراز تلك البراعات لأمر تربوي يراد .

إننا نريد أن نبرز السنن الربانية . كيف تعمل في واقع الأرض . والسنن الربانية تقول أمورا كثيرة مهمة في التوجيه العقدي والتوجيه التربوي .

تقول إن النجاح في الحياة الدنيا ليس في ذاته دليلا على أن أصحابه من الأخيار ، ولا أن منهجهم في الحياة الدنيا منهج صحيح . فقد يكونون من أشد الناس شرا وطغيانا وجبروتا ، ويكون نجاحهم في الحياة الدنيا – وهم في شرورهم تلك – استدراجاً لهم . **(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)** [308] .

وهذا التوجيه له أهمية خاصة بالنسبة لنا في أوضاعنا المعاصرة ، التي ابتلينا فيها بالغزو الفكري من ناحية ، والانبهار بما عند الغرب من ناحية أخرى . والظن بأنهم ما داموا أقوياء وممكنين في الأرض ، فلا بد أن يكون كل شيء عندهم حسنا ، بما فيه أفكارهم ونظمهم وتصوراتهم وسلوكياتهم .. وهو ظن باطل بطبيعة الحال ، والجاهلية الأوروبية المعاصرة هي وريثة الإمبراطورية الرومانية في براعاتها الحربية والسياسية والتنظيمية والعمرانية والمادية ، وخلوها في الوقت ذاته من القيم الأخلاقية ، وانطماس الجانب الروحي فيها . فإذا أبرزنا جاهلية الإمبراطورية الرومانية ، ورسوبها في مادة الرسوب الرئيسية ، فذلك ييسر لنا إبراز جاهلية الغرب اليوم ، على الرغم من التقدم الجبار الذي أحرزه في ميادين كثيرة من أمور الحياة الدنيا .

وفي الوقت نفسه تقول السنن الربانية إنه لا ارتباط على الإطلاق بين التقدم المادي والعلمي وبين الفساد الخلقي والانطماس الروحي ، وإن الله يتيح النجاح للمؤمنين ، المتبعين للمنهج الرباني – حين يتخذون الأسباب المناسبة – ويمكن لهم في الأرض بكل وسائل التمكين ، ويمنحهم في الوقت ذاته رضوانه في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا يفيض عليهم – بالإضافة إلى التمكين المادي – **(بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)** وطمأنينة في قلوبهم ، وفي الآخرة جنات الخلد .

وهذا التوجيه له أهميته كذلك بالنسبة لنا في أوضاعنا الحاضرة ، في مقاومة ما حل بنا في نكستنا الحالية من ليّ رقابنا نحو الغرب في تبعية مريضة لا تميز بين الخير والشر ، ولا بين الضار والنافع ، ظنا من الأجيال التي تربت في الغزو الفكري والانبهار بالغرب أن التمسك بالقيم عائق عن النجاح في الدنيا ، وأنه لا ينجح إلا من خلع دينه وأخلاقه وتخلص من كل القيم الثابتة في حياته . وهو ظن باطل بطبيعة الحال . ونحتاج هنا إلى دراسة التاريخ الإسلامي ، والتركيز على فترة الصعود فيه ، وقد امتدت

[308] سورة النحل [25] .

قرونا متوالية ، أطول بكثير من الفترة التي تمكن فيها الغرب ، والتي لا تتعدى – حتى الآن – ثلاثة قرون ، بينما تؤذن حضارة الغرب الجاهلية بالانهيار .. حسب سنة الله !

وفي دراستنا لتاريخ الإسلام لا نحتاج أن نزور صورة زاهية تخالف الواقع ! فالصورة – في فترة الصعود بصفة خاصة – زاهية في ذات نفسها بما فيه الكفاية ! ولكنا نحتاج إلى إبراز نقاط معينة فيها :

1- أن الإيمان بالله واليوم الآخر في أصفى صورة عرفتها البشرية في تاريخها كله ، وأعمق صورة ، لم يكن في حياة الأمة الإسلامية دعوة إلى التعلق بالحياة الأخرى وحدها وإهمال الحياة الدنيا ، كما كانت النصرانية المحرفة في حياة أوروبا ، التي ابتدعت الرهبانية :

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) [309] .

إنما كانت – مع الإشراق الروحي ، والتمسك بالثوابت الأخلاقية – عملا جادا في الحياة الدنيا في جميع الميادين ، أنتج حركة علمية فائقة ، وحضارة عمرانية شاملة ، مع التمكن الحربي والسياسي والاقتصادي ، ومع السبق في ميادين من الخير كثيرة ، كنشر التعليم المجاني ، وإتاحة العلاج المجاني ، وحبس الأوقاف الضخمة لأوجه البر .

2- أن حركة الفتح الإسلامي – وهي من أبرز ملامح فترة الصعود – لم تكن جبروتا ظالما يسعى لاستلاب الخير من أصحابها ، وإفقارهم وإذلالهم وقهرهم ، ككل حركات التوسع الجاهلية من أول التاريخ إلى هذه اللحظة ، إنما كانت لنشر النور والهدي – بغير إكراه – ورفع الناس من وهدة الشرك والخرافة ، وتطهيرهم مما هم غارقون فيه من أرجاس ، كما صور ربعي بن عامر رضي الله عه القضية لرستم قائد الفرس حين سأله : ما الذي جاء بكم إلى بلادنا ، فقال : إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة . وعمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الفاتح الوحيد في التاريخ الذي قرر أن يبقي ملكية الأرض المفتوحة لأصحابها ولا يمنحها للفاتحين ، مستنا بذلك سنة فريدة في التاريخ تقيد بها المسلمون من بعده . وعمر بن الخطاب كذلك هو الفاتح الوحيد في التاريخ الذي عاتب واليه لأن ابن ذلك الوالي تعدى على أحد أفراد الأرض المفتوحة ، فقال لعمرو بن العاص ، والي مصر : يا عمرو ! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ! ثم أوقع القصاص على ابن الوالي من أجل إقامة العدل الرباني .

3- أن الحضارة الإسلامية كانت حضارة إنسانية النزعة ، لا تحجب الخير عن الآخرين ، ولا تضن بالعلم والثقافة ووسائل التمدن فتمنع الآخرين من الوصول إليها أو التمكن منها كما تصنع الجاهلية المعاصرة مع المسلمين بصفة خاصة ، لتمنعهم من الوصول إلى آفاق عالية في العلم ، وتقتل منهم من برع بصفة خاصة في علوم الذرة دون أن يتحرج ضميرها من هذا الصنيع ! وقد كانت مدارسهم وجامعاتهم مفتوحة لليهود والنصارى

309() سورة الحديد [27] .

يتعلمون فيها كل العلم الذي يرغبون في تحصيله .. ومن هناك قامت النهضة الأوربية ، بما تعلمته في مدارس المسلمين .

4- أن الحضارة الإسلامية كانت حضارة إنسانية بالمعنى الآخر ، معنى شمولها لكل جوانب الإنسان . جسمة وروحه . عقله ووجدانه . دنياه وآخرته . عمله وعبادته ، في توازن يحقق " إنسانية الإنسان " فلا هو حيوان ولا هو إله ، وإنما هو إنسان عابد لله ، متبع لمنهج الله .

* * *

ثم إننا لا نحتاج كذلك أن نداري على انحرافات الأمة الإسلامية وانتكاساتها ، وخاصة نكستها الحاضرة ، ولا أن نتلمس لها المعاذير الكاذبة ، فنلقي المسئولية في ذلك على أحد غير نفسها !

بل إننا حريصون أن ندرس ذلك بأمانة ، وصدق ، وإخلاص .

أما الأمانة فهي أمر رباني لهذه الأمة لا يسعها الخروج عن مقتضاه .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ..) [310] .

فحين تنحرف الأمة الإسلامية ، وتقصر في أداء التكاليف التي كلفها الله إياها ، فلا بد أن نسجل ذلك بكل الأمانة التي أمر بها الله . ولكن يكون في حسابنا عدة نقاط :

1- إن المستشرقين – وتلاميذهم – عمدوا إلى تشويه " علمي " منظم هادف بالنسبة للتاريخ الإسلامي لأمر يراد . فركزوا على الخط الأسود في الصفحة ، وحجبوا البياض كله عن العيون ! وكان الهدف أمرين في وقت واحد . الإيحاء بأن التاريخ الإسلامي – " الحقيقي ! " – لا يستحق الاعتزاز به ولا الفخر بأمجاده فهو مليء بالبقع السوداء ! ثم الإيحاء بأن الإسلام – في صورته الزاهية التي تملأ وجدان المسلمين – لم يعش إلا سنوات قليلة لا تستحق أن يُنشأ لها فصل خاص في تاريخ البشرية (إنما الذي يستحق ذلك هو " الحضارة " الغربية !) .

وكلا الإيحائين مطلوب عند أعداء الإسلام ، لأنهم يعلمون أن اعتزاز المسلمين بتاريخهم ، وما فيه من أمجاد وعظمات ، من أهم أسباب استمرارية الأمة الإسلامية في الوجود ، وعدم انقراضها كما انقرض غيرها من الأمم التي طواها التاريخ .. وأنه من أهم بواعث " الصحوة الإسلامية الحالية ، التي لا يطيقها الغرب ، ويسعى إلى قتلها بكل الوسائل والأساليب .

فأما المؤرخ المسلم فينبغي له أن يرسم الصورة كاملة ببياضها وسوادها في حجمها الحقيقي دون إفراط ولا تفريط . وسيجد حين يفعل ذلك أنه خلال سبعة قرون على الأقل من تاريخ هذه الأمة كان البياض هو الغالب على الصورة ، وخلال خمسة قرون أخرى كان السواد يتكاثر في الصورة ولكنها لا تخلو من البياض كما يزعم المستشرقون وتلاميذهم ، وأن القرنين الأخيرين كانا أشد فترات الظلام في تاريخ الأمة .

310() سورة النساء [135] .

2- يحتاج المؤرخ المسلم إلى التركيز على انحرافات الأمة في فترتها الأخيرة ، لا بروح الشماتة كما يفعل العلمانيون في دراساتهم التي تنم عن حقد دفين في نفوسهم على الإسلام ، اكتسبوه من سادتهم الغربيين ، ولكن بروح التربية والتعليم . التعليم الذي يوضح مسار السنن الربانية ، وأنها لا تحابي أحداً من الخلق لمجرد قوله – أو ظنه – أنه على إيمان صحيح . إنما السنن متعلقة بأعمال الناس وواقعهم لا بأقوالهم ولا ظنونهم الفاسدة . وأن السنن الربانية لم تحاب الأمة الإسلامية حين انحرفت عن الطريق ، إنما عاقبهم الله – بسبب تقاعسهم وتواكلهم وإعراضهم – بنزع الاستخلاف والتمكين والتأمين منهم ، وهي الأمور التي تكفل بها الله سبحانه للأمة حين تكون على الشرط :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً) [311] .

هذا نصيب التعليم في هذا الشأن . أما نصيب التربية فهو توجيه الأمة إلى أنها لن تخرج من انتكاستها إلا بإزالة الأسباب التي أدت إليها ، كما تقول السنن الربانية .

(إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [312] .

ولن يعيد الله للأمة مجدها ، ومكانتها ، وقوتها ، حتى تعود عودة صادقة إلى الإسلام .

" لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها " .

وهو توجيه مهم في وجه الدعاوى التي تقول إنه لا سبيل لهذه الأمة إلى النهوض إلا بالانسلاخ من الإسلام ، أو في القليل حصره في داخل الوجدان ، ومنعه من الهيمنة على واقع الحياة !

3- إن إبراز انحرافات الأمة الإسلامية في انتكاستها الأخيرة ، ومسئوليتها عما حدث لها من الضعف والهوان والذل والضياع الذي تعيشه اليوم ، لا ينفي مؤامرة الأعداء ضدها وضد الإسلام .

إن نفي المؤامرة سذاجة مفرطة ، بعد ظهور كل العلامات الدالة عليها ، بل بعد تصريح ساسة الغرب وكتابهم الذي لا مواربة فيه ، بأن عدوهم الأكبر هو الإسلام .

وإن الخطأ " العلمي " الذي يقع فيه الذين يلقون المسئولية كلها على الأعداء ، ويخلون أنفسهم من المسئولية ، مماثل تماما للخطأ المقابل ، الذي يلقي المسئولية كلها على الأمة الإسلامية وينفي تآمر الأعداء على الإسلام .

كلاهما نظرة جزئية عاجزة عن الإحاطة بالقضية من جانبيها . وكلاهما مغالطة للواقع المحسوس .

[311] سورة النور [55] .
[312] سورة الرعد [11] .

إن تحميل الأمة الإسلامية مسئولية ما هي فيه اليوم ، لا ينفي أن الأعداء يتآمرون منذ قرون للقضاء على الإسلام .

والإقرار بوجود المؤامرة لا ينفي مسئولية الأمة عن حالتها التي وصلت إليها اليوم . وتصوير هذين الأمرين على أنهما نقيضان لا بد من نفي أحدهما لإثبات الآخر ، خلل في الرؤية يقع فيه كثير من الناس بوعي وبغير وعي .

الأمة تتحمل المسئولية كاملة عن تقصيرها وتقاعسها وإعراضها ، وقد حذرها رسولها صلى الله عليه وسلم منذ أربعة عشر قرنا ونيفا من مصيرها الذي صارت إليه اليوم ، حين قال عليه الصلاة والسلام : " يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل . ولينزعن الله المهابة من صدور أعدائكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت " [313] .

وواضح من الحديث الإحاطة بالأمر من طرفيه معا : تقاعس الأمة ، وتكالب الأعداء ، وذلك من إعجاز الوحي :

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [314] .

القضية في حقيقتها التاريخية أن الأعداء يكيدون دائما ولا يكفون عن الكيد :

(وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ) [315] .

(وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا) [316] .

ولكن هذا الكيد يصيب – أو لا يصيب – حسب مناعة الأمة الإسلامية تجاهه :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً) [317] .

الصبر على تكاليف هذا الدين ، والصبر على الثبات عليه مهما حاول الأعداء زحزحة الأمة عنه ، والتقوى التي لا تنال إلا بطاعة الله فيما نهى وفيما أمر .

وحين تقدم الأمة الصبر والتقوى – بمعناهما القرآني ، الذي يشمل إعداد العدة واتخاذ الأسباب والاستقامة على المنهج الرباني في السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر والأخلاق – لا يجد الأعداء منفذا ينفذون منه إلى قلب الأمة فلا يضر كيدهم شيئا . وحين تعجز الأمة وتتراجع عن الصبر المطلوب والتقوى ، ينفذ الكيد ، ويصيب الأمة في الأعماق ..

313() أخرجه أحمد وأبو داود .
314() سورة النجم [3- 4] .
315() سورة البقرة [120] .
316() سورة البقرة [217] .
317() سورة آل عمران [120] .

حقيقة شاملة ، لا تناقض بيـن طرفيها . ولا نحتاج أن ننفي طرفا منها لكي نثبت الآخر !

والحقيقة المشهودة أن الأمة ظلت تتراجع خلال القرون الأخيرة عن حقيقة دينها ، وعن تكاليفه في النفس والمال والفكر والخلق وكل مجالات الحياة ، ففتح هذا شهية الأعداء ، المتربصين أبدا ، الكائدين أبدا ، الذي لا يكفون عن الكيد أبدا ، فتجمعوا ، وأجمعوا أمرهم على الإجهاز على هذا الدين فـي أنسب الأوقات – في تصورهم – للقضاء الأخير على الإسلام .

وهذا ما ينبغي للمؤرخ المسلم أن يصحح فيه مفاهيم الناس ، سواء الذين يلقون اللوم كله على الأعداء ويهربون من مسئوليتهم ، أو الذين يبرئون الأعداء من التآمر ليلقوا المسئولية على الأمة المسلمة حقداً عليها وشماتة فيها .

وتصحيح المفاهيم في هذا الشأن واجب " علمي " في الوقت الذي هو واجب ديني عقدي . ولا تناقض في الإسلام ولا تنافر بين العلم والدين .

4- إنه على الرغم من كل ما وقع من الأمة من الانحراف ، وكل ما قام به الأعداء من الكيد ، فقد حدثت الصحوة .. ولهذا الأمر ولا شك دلالته الواضحة .

دلالته أن هذه الأمة – أمة العقيدة – لا تنطبق عليها سنة الفناء بالشيخوخة – إن كانت هذه سنّة – وأن فيها من الحيوية الكامنة ما يبعثها من جديد بعد أن تكون قد أشرفت على الهلاك .

وهناك أكثر من تفسير يمكن أن يفسر هذه الظاهرة .

فحفظ الله لكتابه المنزل ، ولسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واحد من الأسباب التي حفظت هذه الأمة من الفناء خلال مسيرتها التاريخية الطويلة على الرغم من كل الكوارث التي أصابتها على يد أعدائها ، وعلى الرغم من كل التقصير الذي وقع منها .. إذ أن المنبع الذي تستقي منه الأمة وجودها ، موجود دائما ، في المتناول لمن يريد .

وكون هذا الدين هو دين الفطرة الذي يلبي كل احتياجات الفطرة السوية ، ويتجاوب مع النمو السوي في حياة الإنسان ، لا يعوقه ولا يعرقله ولا يكبته ، واحد من الأسباب .

وكون هذا الدين ليس نظريات في الكتب ولا شعارات مرفوعة في الفضاء ، وإنما هو واقع عملي ، ثم هو واقع عاشته الأمة بالفعل عدة قرون ، ووعت أحداثه ذاكرتها التاريخية المتجددة .. واحد من الأسباب .

وفوق ذلك كله ، وقبل ذلك كله ، وعد الله الدائم أن يبعث على رأس كل قرن من يجدد لهذه الأمة أمر دينها :

(وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً) [318] .

ومن ثم فإن الصحوة تمثل انبعاثة ذاتية لا تحتاج إلى أسباب خارجية لإحداثها ، وإن كانت الأسباب الخارجية قد تزيد في تدفقها أو تؤثر في مسارها .

318() سورة الأحزاب [38] .

والمؤرخ المسلم قبل هذا وبعد هذا مؤرخ .. عليه أن يبذل الجهد في تحرير الوقائع ، وتمحيص الروايات ، وتحري الدقة العلمية في الدراسة ، والتجرد من الهوى ما وسعه الجهد .

وعليه فوق ذلك ألا يفاجأ – ولا يوهن من عزمه – أن يجد نفسه أحيانا وحيدا في اللجة يسبح ضد التيار !

(3)
في الاقتصاد

ليس من شأني في هذه العجالة ولا في غيرها أن أتكلم في علم الاقتصاد ، فهذا شأن المتخصصين في ذلك العلم ، ولكن هذا لا يمنعني من الإشارة إلى بعض الملاحظات :

تبدأ الدراسة المنقولة عن الغرب في علم الاقتصاد بتعريف " المشكلة الاقتصادية " ويقال للطلاب إن المشكلة الاقتصادية هي مشكلة الندرة !

وقد عجبت حين علمت ذلك ، وعلمت أن هذا يقال في معاهدنا " الإسلامية " ! يقوله أساتذة مسلمون ، ويتلقاه عنهم طلاب مسلمون ، ويأخذون هذا الكلام قضية مسلمة ، ويبنون عليها دراستهم في علم الاقتصاد !

وكان موضع عجبي أن هؤلاء جميعا يقرءون – أو المفروض فيهم أن يقرءوا – قوله تعالى : **(قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ)** [319] .

الله يقول إنه بارك فيها وقدر فيها أقواتها ، ونحن نقول إن المشكلة الاقتصادية هي مشكلة الندرة ! أي قلة الموجود بالنسبة للمطلوب !

كلا ! إن المشكلة هي في السلوك البشري المخالف لمنهج الله ! فحين يأخذ أناس أكثر من حقهم الشرعي ، باستخدام وسائل لم يأذن بها الله ، ثم لا يؤدون حق المال الذي فرضه الله عليهم في أموالهم .. تنشأ المشكلة !

ومرة أخرى حين أخذ أنصار نظرية " مالتس " ينذرون بالويل والثبور ، وعظائم الأمور ، ويقولون إن الأرض لن تكفي سكانها بسبب الانفجار السكاني " الرهيب ! " عجبت لمن يردد هذا الكلام في عالمنا الإسلامي كأنه حقيقة !

ثم وقع في يدي كتاب ألفه أحد اللوردات الإنجليز بعنوان " معضلة الرجل الأبيض The White Man's Dilemma " ظهرت طبعته الأولى عام 1961 م ثم غُيِّر الكلام في الطبعات التالية (لأمر قد نفهم سره !) وقال المؤلف في طبعته الأولى كلاما ثمينا جيدا (يبدو أنه عوتب من أجله ونصح بتغييره) قرر فيه أن هذه الصيحة الخبيثة التي تقول إن الأرض لن تكفي سكانها سنة كذا ، عارية عن الصحة من الوجهة العلمية ، وإن وراءها قصدا خبيثا ، لأمر يراد !

[319] سورة فصلت [9 – 10] .

قال : إن نسل الرجل الملون يتزايد باستمرار ، نتيجة تقدم الرعاية الصحية في السنوات الأخيرة ، الذي جعل نسبة الوفيات تقل عن ذي قبل ، بينما الخصوبة باقية على حالها ، فيكون من نتيجة ذلك أن يولد فيهم مواليد كثيرون وتقل الوفيات نتيجة الرعاية الصحية ، فيتزايد عددهم باستمرار ، بينما نسل الرجل الأبيض يتناقص باستمرار ، نتيجة عمل المرأة ، وعدم رغبتها في كثرة النسل ، لكي لا يعطلها الأولاد عن العمل من جهة ، ولكي تحافظ على رشاقتها من جهة أخرى (هذا كلام الرجل !) ، ونتيجة تأخر سن الزواج عندهم لأسباب اقتصادية ورغبة في تطويل فترة المتاع الحر ! وتكون النتيجة النهائية أن نسل الرجل الملون يتفوق في العدد على نسل الرجل الأبيض .

ثم قال الرجل في صراحة يحسد عليها (ولعلها هي التي عوتب من أجلها فغيّر ما غير في الطبعات التالية) إن الرجل الأبيض يستمتع الآن بالرفاهية والسلطان بما سلب من أقوات الرجل الملون ، ولكنه يخشى إذا استمر تزايد النسل عند الرجل الملون أن يتنبه هذا الأخير لحقيقة وضع الرجل الأبيض منه ، وأنه مغتصب لأقواته ، فيثور عليه ويسعى إلى استرداد أقواته المسلوبة ، وعندئذ يفقد الرجل الأبيض رفاهيته التي تعود أن يعيش فيها ، ومن أجل ذلك يوحي إلى الرجل الملون باستمرار أن يحدد نسله ، ويوهمه أن أقوات الأرض لن تكفي في المستقبل إذا استمر نسله في التزايد بمعدله الحالي !

وقال الرجل إن مساحات كبيرة من الأرض قابلة للاستغلال لم تستغل بعد ، وإن في البحار من المواد الغذائية ما لم يستغل عشره حتى اليوم ، وإن الأرض بيابسها ورطبها تكفي لإعالة سكان الأرض ولو بلغوا عدة أضعاف بالنسبة لعددهم اليوم !

كلام ثمين كما ترى .. يفضح هذه الدعوى التي يتبناها " الاقتصاديون في بلادنا بغير وعي ، ويطالبون بتحديد النسل خوفا من عدم كفاية " الأقوات في الستقبل !

وهذه كالأولى تدل على عدم أصالتنا في تناول علوم الاقتصاد ، حين نتبع ما يقوله الغرب بالحق وبالباطل ، ونحصر تفكيرنا فيما يريدوننا أن نفكر فيه ، وعلى النحو الذي يريدوننا أن نفكر به !

* * *

كيف تكون أصالتنا إن اتجهنا إلى التأصيل الإسلامي في علم الاقتصاد ؟!

لن أخوض في " تخصصات " علم الاقتصاد .. وأترك هذا للمختصين . ولكني أقول على هامش الموضوع إنه يجب علينا في دراستنا أن نعدل طريقة التناول ، فنقول – ونحن مستيقنون – إن جاهلية الناس ، أي عدم اتباعهم لما أنزل الله هي السبب الرئيسي في مشاكل الاقتصاد في الأرض .

لقد كان الإقطاع نظاما جاهليا ، والرأسمالية كذلك (ونوفر الكلام عن الشيوعية فقد سقطت التجربة ولم تعد في حاجة إلى تفنيد) .

فأما الإقطاع فقد باركته الكنيسة الأوربية ولم تعترض عليه ، مع أن واجبها كان يقتضي أن تحاربه وتقضي عليه ، ولكنها هي نقسها ذات إقطاعيات شاسعة فلم يكن منطقيا أن تقف ضد مصالها الخاصة ! ولأنها من جهة أخرى لم تسع في تاريخها كله إلى تحكيم شرع الله ، إنما تركت القانون الروماني – بكل مظالمه – يحكم الأرض ، واكتفت هي بالسيطرة والسلطان !

وأما الرأسمالية فقد نبتت وقد فقدت الكنيسة كثيرا من سلطانها ، وفقد الدين مكانته في نفوس الناس ، وقالت الرأسمالية – اليهودية أساسا – إن الاقتصاد له قوانينه الخاصة ، ولا علاقة له بالدين ، ولا علاقة له بالأخلاق ، وصدقها الناس – أو خضعوا لسلطانها الطاغي دون مقاومة تذكر – فسيطرت على الاقتصاد الغربي دون منازع ، حتى جاءت الشيوعية فتصارعا فترة من الزمن ، ثم استعادت الرأسمالية سيطرتها بعد اندحار الشيوعية وأصبحت هي النظام العالمي في مجال الاقتصاد .

وحرصت الجاهلية المعاصرة حرصا شديدا على إبعاد القضية كلها عن الدين ، والنظرة الدينية ، والقيم الدينية ، من طريقين اثنين : أحدهما الادعاء بأن الدين لا علاقة له بالاقتصاد ولا بغيره من أمور الحياة الدنيا – أي الأمور " العلمانية " – وإنما هذه لها قوانينها الخاصة التي يشرف عليها العلمانيون ، الذين لا علاقة لهم بالدين . والثاني إبعاد الناس في واقع حياتهم عن الدين وتأثيره ، فلا يعودون يقيسون شيئا بمقياس الدين !

ولكن الباحث المسلم في علم الاقتصاد يجب أن يتبين نقطة الخلل الرئيسية في الاقتصاد الغربي ، وهي أنه اتباع لغير ما أنزل الله .

فلم يقل سبحانه وتعالى في أي كتاب من كتبه المنزلة إنه يجوز لأحد حين يملك الأرض (وشرط الملك ألا يكون بوسيلة محرمة) أن يكون مالكا للأرض ومن عليها من البشر في الوقت ذاته ، يتصرف فيهم كيف يشاء ، وأن يكون صاحب الأرض هو السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية في ذات الوقت ، كما كان الإقطاع في أوربا .

وعلى ذلك فالإقطاع حرام في دين الله الحق ، لا يستند لسلطان شرعي ، ولو باركته الكنيسة الأوربية ودافعت عنه !

أما الرأسمالية فعلى أي شيء تعتمد في مسكلها الذي يؤدي إلى تضخمها وطغيانها ؟

تعتد على الربا وهو محرم في دين الله .

وتعتد على عدم توفية الأجير أجره وهو محرم في دين الله .

وتعتمد على تقديم منتجات جديدة باستمرار تبدأ باعتبارها كماليات ، ثم تتحول بإغراء الإعلان إلى ضروريات ، وكثير منها أقرب إلى الترف منه إلى الضرورة الحقيقية ، والترف محرم في دين الله .

وتعتمد أخيرا على تلهية الناس بالحياة الدنيا وزينتها ، وشغلهم عن الله والآخرة ، لكي يظلوا يستهلكون ما تنتجه الرأسمالية من المنتجات ، ولا يشعرون بالشبع ، ولا يزهدون في الشراء .. واستحباب الحياة الدنيا على الآخرة محرم في دين الله .

بهذه الوسائل المحرمة تتضخم الرأسمالية ، وأشدها حرمة هو الربا ، الذي آذن الله مرتكبيه بالحرب :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِـنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ) [320] .

والذي قال فيه بعض خبراء الغرب أنفسهم إن نتيجته الحتمية هي تزايد الثروة في يد فئة يتناقص عددها على الدوام ، وتزايد الفقر في فئة يتزايد عددها على الدوام [321] .

وهكذا يتبين للباحث المسلم أن كل ما يقع من الظلم الاقتصادي في الأرض منشؤه اتباع غير ما أنزل الله ، وأن الظلم الاقتصادي يصاحبه دائما ظلم سياسي وظلم اجتماعي وانحراف فكري ، يلبس أقنعة شتى ولكنه دائماً ظلم ، وأن هذا الظلم المتشعب ، لا علاج له إلا بإزالة أسبابه .. أي باتباع ما أنزل الله .

* * *

وقد وضع الله نظاما لحكم حياة الناس في الأرض ، يقوم على العدل بدلا من الظلم ، ويقوم على جعل الناس شركاء في الخير العام ، فيحمل القادرون غير القادرين ، ويقوم على توزيع المغارم والمغانم بالقسط .

نظام يقوم في خطوطه العريضة على أن المال مال الله ، وأن البشر مستخلفون فيه بحسب شروط المالك سبحانه وتعالى لا بحسب أهوائهم ، ولا بحسب أطماعهم التي لا تشبع :

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ، إِلَّا الْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ، وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ، لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) [322] .

وأن الكسب والتملك مباح من حيث المبدأ ولكنه مقيد بأن يكون حلالا في مأخذه ، حلالا في استخدامه ، حلالا في إنفاقه . فلا يكون من غصب أو سرقة أو غش أو احتكار أوربا . ولا يستخدم في الضرر ولا الإفساد ، ولا ينفق في سرف ولا ترف ولا مخيلة ، ولا يكنز ، وتخرج زكاته فتجمع في بيت المال لتصرف في مصارف الزكاة .

وفي داخل هذه الحدود العامة – الثابتة – عشرات من الوسائل ومئات ليس من شأننا الحديث عنها في هذه العجالة ، إنما يتناولها الفقهاء والدارسون بالشرح والتفصيل .

ولا نقول مع ذلك إن المجتمع الإسلامي الصحيح لا يحدث فيه شيء من الظلم على الإطلاق ! فلن يكون الناس في أي وقت ملائكة لا يخطئون ولا يعصون ولا يتعثرون :

320() سورة البقرة [278 – 279] .
321() انظر تقرير الخبير الألماني جوزيف شاخت عن الربا .
322() سورة المعارج [19 – 25] .

" كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون " [323] .

ولكن في المجتمع المسلم الملتزم توجد دائما أداة تصلح ما يفسد الناس في الأرض ، هي الاحتكام إلى شريعة الله :

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) [324] .

ولا نتصور كذلك أن الحياة في المجتمع المسلم الملتزم خالية من المعاناة ، فالمعاناة قدر مقدور على البشر في الحياة الدنيا . ولكن هناك فرق بين معاناة يصحبها الظلم ، ومعاناة سببها طبيعة الكدح البشري ولكن ثمرتها بركة وطمأنينة في الحياة الدنيا ، ورضوان من الله في الآخرة .

* * *

المدخل إلى علم الاقتصاد الإسلامي هو مدخل تربوي سلوكي ، يضع قواعد السلوك الصحيح ويشارك في التربية عليها ..

يجب ابتداء أن ينتفي من حس الدارس المسلم في علم الاقتصاد أن الاقتصاد له قوانينه الخاصة التي لا علاقة لها بالدين ولا علاقة لها بالأخلاق ! فقد ابتدعت الجاهلية المعاصرة هذه الدعوى لتستر وراءها جرائمها التي ترتكبها باسم " قواعد الاقتصاد " !

إن النشاط الاقتصادي جزء من النشاط البشري . والنشاط البشري كله يجب أن يكون لله ، أي ملتزما بما أنزل الله :

(قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ) [325] .

ومن أجل أن يتم ذلك لا بد من تربية الناس على العقيدة الصحيحة ، وعلى أخلاقيات لا إله إلا الله ، ولا بد أن يكون التحاكم في كل الأمور إلى شريعة الله ، وأن تكون مناهج التعليم ووسائل الإعلام ملتزمة بما أنزل الله ، معاونة في تثبيت القيم الإيمانية ، لا معارضة لها ولا معادية لمقتضياتها .. وهذا كله داخل في صميم التنمية الاقتصادية ، لا ينفصل عنها لا في التصور ولا في السلوك ، ولا تتم التنمية الاقتصادية بدونه .

لا بد ان يرفع الناس – بالتربية – إلى مستوى الإنسانية ، ولا يتركوا لجواذب الأرض تهبط بهم إلى دنس الشهوات ، لأن هذا – فوق كونه معصية لله – فهو مفسد للتنمية الاقتصادية ، يبدد الطاقة في الهدم لا في البناء .

لا بد أن تكون الآخرة حاضرة في قلوب الناس ومشاعرهم ، لا خيالا بعيدا يخايل من بعيد ، ولا تكاد تثبت له صورة في الوجدان .

لا بد أن يتربى الناس على التكافل الذي أمر به الله .

323 أخرجه الشيخان .
324 سورة النساء [29] .
325 سورة الأنعام [162 – 163] .

لا بد أن يتربى الناس على العمل والإنتاج والإتقان – مع الاقتصاد في الاستهلاك – ليتوافر للدولة المسلمة ما تنفذ به أمر الله : **(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)** [326] .

لا بد أن تكون هناك أسرة مسلمة متماسكة تكون بمثابة المحضن الذي يربي الأجيال على خصال الإسلام .

وبعد ذلك – لا قبله – ندخل في خصوصيات علم الاقتصاد ، فتكون النفوس مهيأة لتقبل الاقتصاد الإسلامي ، مطبقة له في عالم الواقع ..

ويجب أن يعلم المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها أنه لا يوجد " اقتصاد " في الأرض كلها ينقذهم مما هم فيه ، مما يسمى " الحلول الاقتصادية " أي الإجراءات الاقتصادية البحتة ، بغير إصلاح لنفوس الناس وعقائدهم !

إنما الذي ينقذهم هو هذا المنهج المتكامل الذي ذكرناه .. أي العودة إلى الإسلام الحقيقي ، عقيدة وشريعة وأخلاقا وممارسة في عالم الواقع ، وإن الذي تكفل بإنقاذهم مما هم فيه إن اتبعوا ذلك المنهج هو رب العالمين نفسه لا أحد من الأحزاب ولا الجماعات ، وإنما البشر أدوات لتنفيذ وعد الله :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً) [327] .

326() سورة الأنفال [60] .
327() سورة النور [55] .

(4)
في التربية

حينما نكتب عن " التربية الإسلامية " فمن الطبيعي أن نركز على العقيدة الإسلامية ، وعلى الوجدان الديني باعتبار أنه الأساس الذي تقوم عليه التربية الإسلامية . وعندئذ يظن العلمانيون ، بل بعض المسلمين أنفسهم ، أن التربية الإسلامية محصورة في هذا الجانب ، وأنها توازي ما يسمى " التربية الدينية " في كتابات الغربيين التربوية . ومن ثم ينظرون إليها على أنها جزء من التربية المطلوبة (لمن أراد أن يطلبها !) ولكنها ليست هي التربية المنشودة ! وإنما هذه يبحث عنها في مصادر أخرى غير الإسلام !

وابتداءً لا بد من إزالة هذا الوهم ، المتأثر بصورة " الدين " في الغرب ، والواقع الذي يعيشه الغرب بالنسبة للدين . فالدين هناك " علاقة بين العبد والرب ، محلها القلب ، ولا علاقة لها بواقع الحياة " . علاقة تسكن في وجدان صاحبها ، وتؤثر في بعض سلوكياته الشخصية ، ولكنها لا تتدخل في حركة الحياة الواقعية ، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، التي يشترك فيها صاحب الدين مع المتخلي عن الدين مع المتمرد على الدين ، كلهم بطريقة واحدة ، وبنسب متساوية ! فيصبح الدين مزاجا شخصيا لا يؤثر في واقع الحياة العملي !

هذه هي الصورة " العلمانية " للدين ، وهي السائدة في حياة الغرب ، والذي يَسَّرَ من سريانها هناك المفهوم الكنسي ذاته للدين ، الذي قال " أد ما لقيصر لقيصر وما لله لله ! " وهو الشعار الذي رفعته النصرانية في أيم استضعافها ، ولم تغيره حتى في أوج سلطانها ، الذي امتد في أوربا ثمانية قرون على الأقل ، من القرن الرابع الميلادي إلى القرن الثاني عشر ، فقد كان سلطان الكنيسة متمثلا في إخضاع كل الناس – حاكمين ومحكومين – لأهواء رجال الدين وليس للدين ! ليس للشريعة المنزلة على عيسى عليه السلام ! فلما قامت العلمانية في أوربا ، كان هدفها إقصاء نفوذ رجال الدين عن السياسة (ثم عن الحياة العملية كلها) وليس إقصاء " الدين " ، الذي كان غائبا عن الهيمنة على السياسة (وعلى الحياة العملية كلها) منذ دخلت أوربا في مسيحية بولس ، وليس في دين عيسى عليه السلام [328] !

هذا المفهوم الكنسي للدين ، الذي يَسَّرَ للعلمانية في أوربا أن تفصله عن واقع الحياة ، ليس هو حقيقة الدين المنزلة من عند الله .. وليس هو الإسلام على أية حال !

الدين في الإسلام هو الحياة ! الحياة كلها بحذافيرها ، بكل جوانبها وكل مجالاتها !

328() راجع فصل " أحوال أوربا " في أول الكتاب .

(قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ..) [329] .

ومن ثم لا يمكن فصله عن الحياة ، إلا إذا قلنا إنه يمكن فصل الحياة عن الحياة !

إنه العقيدة المستقرة في القلب ، والوجدان الذي يحرك الشعور ، والعبادات التي توجه لله سبحانه وتعالى وحده بلا شريك ، والشريعة التي تحكم السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر والسلوك الفردي والاجتماعي ، وتحدد لكل شيء في حياة الإنسان حدودا لا يتعداها (وأحيانا لا يقربها إذا كانت متعلقة بأمور شديدة الجذب) :

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا) [330] .

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا) [331] .

وهو كذلك عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني :

(هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) [332] .

وفي كل مجال من مجالات الحياة له تشريع أو توجيه بحيث لا يخرج شيء على الإطلاق عن أحوال الشريعة الخمسة : إما حلال وإما حرام وإما مباح وإما مستحب وإما مكروه .

ومن ثم فإن " التربية الإسلامية " لا تشمل العقيدة وحدها ، ولا الوجدان الديني وحده ، ولا الشعائر التعبدية وحدها ، فهذه كلها جوانب من الإسلام ، وليست هي " الإسلام " الذي قال الله عنه :

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأِسْلامُ) [333] .

وقال عنه :

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْأِسْلامَ دِيناً) [334] .

* * *

التربية الإسلامية هي التي ربى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وتربى عليها التابعون وتابعوهم ، الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم خير أمة أخرجت للناس :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) [335] .

329() سورة الأنعام [162 – 163] .
330() سورة البقرة [229] .
331() سورة البقرة [187] .
332() سورة هود [61] .
333() سورة آل عمران [19] .
334() سورة المائدة [3] .
335() سورة آل عمران [110] .

فهل كانت تربية الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضوان الله عليهم محصورة في العقيدة أو الوجدان الديني أو الشعائر التعبدية ؟ وهل خرّجت هذه التربية مجرد عبّاد لله بالمعنى الضيق للعبادة .. بمعنى آخر : هل اقتصرت التربية النبوية على الجانب الروحي وحده ؟ أم كان الذين رباهم صلى الله عليه وسلم عمالقة في كل اتجاه : عمالقة في سياسة الحكم ، عمالقة في الحرب ، عمالقة في العلم ، عمالقة في الأخلاق ، عمالقة في كل شيء من شئون الحياة ؟ وكانوا هم ، وذراريهم الذين تربوا على أيديهم من بعدهم ، سادة العالم وقادته ورواده وهداته إلى النور ؟

هذا المعنى الواضح للتربية الإسلامية لم يعد واضحا في أذهان الكثيرين اليوم .. لعدة أسباب .

أولها : المفهوم الغربي " للدين " ، الذي يزحف على حياتنا عن طريق الغزو الفكري ، وينظر الناس إلى الإسلام من خلاله .

وثانيها : الواقع السيئ الذي يعيشه المسلمون اليوم ، والذي يوشك أن تختفي فيه آثار التربية الإسلامية ، والذي يجعل الأمة التي تحمل اسم الإسلام – إلا ما رحم ربك – أسوأ نموذج للأمم ، ضعفا وتخاذلا وتفرقا وتخلفا وتنابذا وسوء خلق .. فتبدو التربية الإسلامية الحقة إلى جانب هذا الواقع السيئ خيالات لا وجود لها فـي الواقع ، وشعارات معلقة في الفراغ .

يضاف إلى ذلك أن الجماعات الإسلامية التي انبثقت عن الصحوة الأخيرة لم تستوعب هي نفسها كل معاني التربية الإسلامية ، لتعرضها واقعا يقنع الناس بحقيقة هذه التربية ، بل زادت فتصارعت فيما بينها وتنابذت ، فأعطت المثل السيئ ، الذي يزيد الناس بعداً عن تصور الحقيقة .

* * *

ولكن تظل الحقيقة مع ذلك هي الحقيقة !

تظل هي الحقيقة لأنها عاشت بالفعل ، في عالم الواقع ، عدة قرون .

عاشت بالقدر الذي يثبت لها وجودا تاريخيا ، ويثبت لها كيانا واضحا وهيكلا صلبا ، لا صورة هلامية ، ولا شيئا رجراجا يذهب ويجيء ..

وإذا كانت الأمة قد انحرفت عن الإسلام فعليها وزرها ، هي تتحمل تبعتها ، وتتحمل نتئج انحرافها ، ولكن يظل الإسلام هو الإسلام كما أنزله الله سبحانه وتعالى لا يتغير ، وتظل أصول التربية الإسلامية قائمة كما هي – وكما طبقت بالفعل فترة من الزمن غير قصيرة – لأنها محفوظة في الكتاب المحفوظ ، وفي تعاليم الرسول المربي صلى الله عليه وسلم ، المحفوظة هي الأخرى بحفظ الله .

واجبنا أن نتعرف عليها ، ونعيد لها الحياة .

* * *

منهج التربية الإسلامية منهج كامل شامل يشمـل كل جوانب التربية ، وكل جوانب الحياة .

ومن عجب أن ننخدع بقوة الغرب المادية – أو قل : ننبهر بها – فتتوهم أن التربية الحقة هي ما يقدمه الغرب ، وأننا ينبغي أن نأخذ علوم التربية من هناك .

وأما أنهم بارعون في بعض جوانب التربية فأمر لا شك فيه .

ولا شك أيضا في أنهم أجروا من التجارب التربوية الجادة الدقيقة المؤسسة على قواعد البحث العلمي الصحيح ما أعطاهم حصيلة عملية يستطيعون أن يستندوا إليها وهم يقدمون نظرياتهم التربوية ، فلا تكون مجرد رؤية نظرية ، ولكنها رؤية تستند إلى واقع تجريبي ، يبلورها ، ويحدد صورتها ، ويجعلها جاهزة للتطبيق .

ولا شك أيضا في أنهم يتابعون أبحاثهم ، فلا يقعدهم الوصول إلى نتائج معينة عن إجراء تجارب جديدة ، وطرق أبواب جديدة من البحث .

وكل تلك إيجابيات يجب أن نستفيد منها ، لأنها تنقصنا ، ولأننا في حاجة شديدة إليها .

ولكن يجب في الوقت ذاته أن ننظر في الحصيلة النهائية لمناهج التربية عندهم ، لنعرف ماذا نأخذ منها وما ندع ، ولا يأخذنا الانبهار فنقول لأنفسنا : يجب أن نأخذ كل شيء ، ولا ندع أي شيء !

الحصيلة هي إنسان ذو شخصية فريدة بارزة ، واثقة من نفسها ، إيجابية ، لا ترهب التجربة ، ذات نزوع عملي ، وذات قدرات نامية ، متحملة لمسئوليتها ، منظمة ، متقبلة للنظام ، قادرة على التعامل مع الآخرين بقدر عال من التهذيب ، وبأقل قدر من الاحتكاك ، وقادرة على بذل الجهد ، وعلى المثابرة في بذل الجهد حتى تتحقق الغاية ..

وفي الوقت ذاته إنسان عالمه هو الحياة الدنيا ، قلما يؤمن بالآخرة أو قلما يفكر فيها ، شديد الرغبة في الاستمتاع بكل لحظة تمر به ، لا يبالي في استمتاعه بحلال أو حرام ، بل هو يستحل كل متاع يخطر في باله ، ويسعى إلى تحقيقه ، شاذا أو سويا ، ويرى أن ذلك من حقه الطبيعي ، وداخل في حريته الشخصية ما دام لا يؤذي الأفراد الآخرين ، الذين لهم مثل حقوقه ، ولهم أن يفعلوا بأنفسهم ما شاءوا .

وفي الوقت ذاته كذلك إنسان معرض لكثير من حالات القلق والأمراض العصبية والنفسية ، وإدمان الخمر وإدمان المخدرات .. وليست الجريمة منه ببعيد !

هل يجوز لنا – حين نرى إيجابيات التربية الغربية ، وهي كثيرة – أن نغمض أعيننا عن سلبياتها ، وهي كثيرة كذلك ؟ وحين تبهرنا الإيجابيات فنغمض أعيننا عن السلبيات ، هل يكون موقفنا سليما ، وهل نكون أصلاء ؟ أم نكون أتباعا مقلدين .. فينتج من تبعيتنا في عالم الواقع أن نأخذ السلبيات لأنها سهلة الأخذ ، لا تحتاج إلى أكثر من الانفلات من الضوابط ، ونعجز عن أخذ الإيجابيات ، لأنها تحتاج إلى بذل الجهد ، ونحن لم نتعود عليه ؟!

ذلك حالنا مع الغرب في واقعنا المعاصر !

* * *

ما نقطة الخلل في مناهج التربية الغربية ؟ .

هي النظرة إلى " الإنسان " ..

الحيوان المتأله ، الذي يعيش لدنياه ، ولا يؤمن بآخرته .

إنه بارع جدا في العمارة المادية للأرض ، لأنها همه الذي يعيش من أجله . وبراعته تلك وروعة إنجازاته فيها هي التي تجعله يتأله ، لأنه يقول كما قال قارون من قبل **(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)** [336] وفي الوقت ذاته هو منحط إلى أسفل سافلين في شهواته الدنسة التي لا تشبع ، لأنه ليس من طبيعتها أن تشبع حين يفتح لها الباب على مصراعيه ، بل من طبيعتها أن تزداد نهما وضراوة حتى تردي صاحبها .. ثم هو في النهاية إنسان غير سعيد بواقعه الذي يعيشه ، فيسعى إلى الهروب منه في الخمر والمخدرات ، أو الصياح والضجيج ، أو الرقص المخبول .. أو الجريمة !

أو كذلك نريد أن نربي أبناءنا وبناتنا ؟!

يقول الحالمون : نأخذ إيجابياتهم ونترك عيوبهم وانحرافاتهم ..

حلم جميل ما باله لم يتحقق خلال قرنين من الزمان جرى فيهما العالم الإسلامي لاهثا وراء الغرب " لينهل " من منابعه ؟!

الإجابة – كما أسلفنا قبل قليل – أننا جابهنا الغرب وقد فقدنا أصالتنا ، فلم يعد في وسعنا أن نأخذ إلا السلبيات التي لا تحتاج إلى جهد ، وعجزنا عن أخذ الإيجابيات لأنها تحتاج إلى بذل الجهد ، والمثابرة عليه .. وهو أمر لا يطيقه إلا الأصلاء !

لكي نستفيد من إيجابيات التربية عند الغرب يجب أن نكون أولا مسلمين !! يجب أن نعود إلى أصالتنا ، وأن نسترد ذاتيتنا التي فقدناها في فترة الانبهار ، فتصبح عندنا العزيمة ، وتصبح عندنا البصيرة ، التي نأخذ منها ما ينفع ، وندع ما يضر ، والتي نتابع بها بذل الجهد حتى نصل إلى تحقيق المطلوب !

وهكذا كانت تفعل الأجيال الأولى من المسلمين تجاه ما تجد نفسها محتاجة إليه من الوسائل والأدوات ، مما ليس عندها ، ومما هو موجود لدى الجاهليات من حولها في فارس وبيزنطة .

كانت تأخذ في عزة المؤمن الواثق أنه بإيمانه هو الأعلى ، وأن لديه في المنهج الرباني كل ما يحتاج إليه من العقائد والمبادئ والقيم والأصول .. إنما يستعير من غيره أدوات ووسائل ، ويطوعها لما يريد هو ، ولا تطوعه هي لما تريد !

وواجبنا اليوم أن نفعل ذلك بالنسبة لما نحتاج أن نتعلمه من الغرب .. في التربية وفي غير التربية .

336() سورة القصص [78] .

في التربية نملك المنهج الأعلى ، لأنه المنهج الرباني البريء مما يعرض للبشر من قصور وخطأ في الرؤية .. ولكنا نحتاج إلى استنباطه مرة أخرى من منابعه بعد أن نسيناه وهجرناه ، ونحتاج أن نستنبط الوسائل التي تعيننا على تطبيقه في عالم اليوم ، وهي ما سبقنا إليه الغرب وبرع فيه . ولكن أخذنا للوسائل من هناك لا يجعلنا نتبع مناهجهم بالضرورة ، إنما نطوعها لما نريده نحن من تطبيق المنهج الرباني ، البريء من الخلل والقصور .

والمنهج موجودة أصوله ومبادئه في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وموجودة صورته العملية التطبيقية في عمل الرسول صلى الله عليه وسلم في تربية أصحابه .. ثم إنه في تراثنا كثير من الكتابات النافعة نسيناها وأهملناها في فترة انبهارنا ، وظنّا أنها أمور حديثة كلها ، لم يفطن إليها إلا الغرب ، ولم يتعرف عليها إلا الغرب !

سنجد في كتابات الماوردي ، والقابسي ، والغزالي ، وغيرهم ، ما سنفاجأ بأنهم تنبهوا في عصرهم المتقدم إلى قضايا تربوية وتعليمية كنا نحسب أنها لم تعرف إلا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ! وكتبوا فيها كتابة علمية محددة نتيجة خبرتهم واجتهادهم .

والحصيلة التربوية لهذا المنهج – متمثلة في الجيل الذي رباه رسول الله صلى الله عليه وسلم – هي " الإنسان الصالح " في أعلى صورة يكون عليها الإنسان الصالح في واقع الأرض .

إنسان يؤمن إيمانا صادقا بالله واليوم الآخر ، يعيش بإيمانه في واقع الحياة الدنيا ، فيبذل فيها أقصى ما يبذل الإنسان من النشاط ، دون أن تكون الحياة الدنيا فتنة له تصرفه عن ربه وآخرته .

إنسان متوازن .. أجمل ما فيه توازنه .

توازن بين العمل للدنيا والعمل للآخرة . توازن بين نوازع الجسد ونوازع الروح . توازن بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية . توازن بين الضرب في مناكب الأرض سعيا وراء الرزق والمتاع ، وبين الترفع على متاع الأرض رجاء الفوز برضوان الله في الآخرة ، فلا يطغيه السعي ، ولا تقعد به الرهبانية . توازن بين الإيمان بالغيب والإيمان بالمحسوس . توازن بين العقل والإيمان . توازن بين الشدة في الحق وسماحة الأخلاق ولين الجانب ..

إنسان مجاهد .. يعلم أنه لا بد من الجهاد من أجل التمكين في الأرض . فلا يجنح إلى الترف الذي يؤدي إلى الترهل والطراوة والعجز .. ويكون مستعدا للفداء في أية لحظة بنفسه وماله ، لا يتردد في العطاء .

إنسان عامل .. يعلم أنه لا بد من الكدح في الحياة ، وتحمل الكَبَد من أجل الوصول .

إنسان عزيز .. عزيز بالإيمان بالله ، والإيمان بالقضاء والقدر ، وأنه لا يصيب الإنسان إلا ما قدره الله له ، فلا يذل من أجل قضاء حوائجه ، ولا يهين نفسه من أجل متاع الأرض الزائل .

إنسان متعاون متكافل ، سهل الالتحام مع المجموع ، دون أن يذوب فيه ..

إنسان عفيف عن ارتكاب الكبائر ، سريع التوبة حين يخطئ ، كثير الاستغفار ..

هكذا كان الرعيل الذي رباه رسول الله صلى الله عليه وسلم في عالم الواقع ..

ومعلوم أن هذا المستوى الرفيع كان هو مستوى الصفوة ، وليس كل الناس ، حتى في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومعلوم كذلك أننا قد لا نصل أبدا إلى تكوين جماعة من البشر على مستوى تلك الصفوة الفريدة في التاريخ ..

ولكن المنهج الإسلامي هو هو لكل مستويات البشر .. كل يأخذ منه قدر ما يطيق (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا) [337] فمن أطاق الصعود إلى أقصى القمة فالمنهج معه يعاونه ويمده ويغذيه .. ومن قعدت به قدراته ففي حدود قدراته ، بشرط ألا يهبط عن الحد الأدنى المفروض .. وحتى حين يهبط – مع المجاهدة – فهو في رحمة الله ما يزال ، لا يطرده الله من رحمته وهو يستغفر ويتوب :

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ، أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) [338] .

ولكن القيمة العملية للنموذج الأعلى هي أن يبقى حافزا دائما لمحاولة الصعود – ما دام قابلا للتطبيق الواقعي ولو في أفراد متناثرين – ومحاولة الصعود هي خير دائما من القعود ، لأن القعود ييسر الانزلاق إلى الحضيض !

ذلك هو المنهج الرباني ..

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ) [339] .

ومهمة المشتغلين بالتأصيل الإسلامي في مجال التربية هي إعادة اكتشاف المنهج ، وتفصيل الحديث في جوانبه المتعددة ، وفي شموله وتوازنه ، مع محاولة إجراء التجارب العملية التي توصل إلى تحويل المنهج من نظريات إلى واقع قابل للتطبيق .

وذلك يحتاج – بداهة – أن يكونوا هم أنفسهم عميقي الإيمان بالمنهج ، واعين في الوقت ذاته إلى مكنوناته ، مجتهدين في اكتشاف أسراره ، جادين في الدعوة إليه ومحاولة تطبيقه .

337() سورة الأنعام [132] .
338() سورة آل عمران [135 – 136] .
339() سورة البقرة [138] .

ولن تكون مهمتهم سهلة من جانبين : الانبهار بما عند الغرب ، الذي يصل إلى حد الفتنة ، وبعد المسلمين في واقعهم المعاصر عن حقيقة الإسلام .

ولكنه جهاد .. يبذلون فيه جهدهم ويتطلعون إلى الأجر عند الله .. ولا يخذّلهم أن يروا إعراض المعرضين ، ولا سخرية المستعبَدين للغرب ، الذين لا يطيقون مجرد الحديث عن الإسلام !

(وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) [340] .

340() سورة آل عمران [139] .

(5)
في الدراسات النفسية

نواجه في عملية التأصيل الإسلامي في الدراسات النفسية عدة قضايا وافدة من الغرب ، لا بد من بحثها ، وبيان موقفنا منها ، لأنها تغزو أفكارنا ، وتؤثر تأثيرا كبيرا في طلابنا الذين يدرسون العلوم النفسية على طريقة الغرب ، وإن كان الذين يدرسون لهم ينطقون بالعربية ، ويحملون أسماء إسلامية !

وقضية الموضوعية في الدراسات النفسية ، وقضية الأبحاث التجريبية قد تكونان من أشد الوافدات تأثيرا على الدارسين في المجالات النفسية ، بالإضافة إلى علم النفس التحليلي والمفاهيم التي يقدمها في علم النفس .

* * *

تقوم دعوى الموضوعية في الدراسات النفسية على أساس أن معظم أبحاث علم النفس اليوم قد أصبحت تجريبية ، تجري في المعمل ، ويقوم الباحثون بتحليل النتائج تحليلا " علميا " فلا يكون لهم فيها موقف ذاتي . إنما تفرض التجارب نتائجها بنفسها ، ودور الباحث محصور في بيان النتائج المستخلصة بعد إجراء التحليلات العلمية على التجربة ، وعمل الإحصائيات اللازمة التي تبين مدى مصداقيتها ..

وهذا المنهج في الدراسات النفسية – على كل ما يقدم من معونة للدراسين ، وخاصة في مجال التعليم ، وفي مجال تعليم الصغار على الأخص – مملوء بالثغرات التي يجب أن يتجنبها التصيل الإسلامي .

وقد أشرنا إلى بعض هذه الثغرات من قبل في الحديث عن بعض الدراسات الاجتماعية ، وهي بالنسبة لعلم النفس أجدر بالذكر ، وأولى بالانتباه .

فإذا تصورنا النفس البشرية طبقات – أو مقامات – فأي طبقاتها هي التي يمكن أن تدخل المعمل ، ويتم فيها التجريب ؟ لا شك أنها الطبقات القريبة من الحس ، كمعامل التعب ، ومعامل الانتباه ، وقياس الذكاء ، والميول التي يمكن أن تشاهد أو تحصى أو تقدم عنها استبيانات (على فرض أمانة المشاركين في الاستبيانات في تقرير حقيقة أوضاعهم ، وعدم اللجوء إلى التظاهر بما يعتقدون أنه مستحسن عند الناس !) .

ولكن هل تنتهي النفس البشرية عند هذه المقامات ؟ وهل هذا هو أهم أو أثمن ما في النفس البشرية ؟

حقا إننا من الوجهة العملية قد نستفيد فوائد كثيرة من مثل هذه التجارب – وخاصة في مجال التعليم – لأنها تجعلنا على بينة من أفضل

وسائل الأداء لتحقيق الهدف الذي نريد تحقيقه ، فلا نضيع جهدا يمكن أن نوفره ، ولا نبدد طاقة يمكن أن نستغلها فيما هو أفضل .

نعم ! ولكن .. في نطاق محدود من النفس ، وجوانب محدودة من الحياة !

ولا شك أن جنوح الغرب في واقعه المعاصر إلى الجانب النفعي (البراجماتي كما يسمونه Pragmatic) هو الذي جعل هذه التجارب – ونتائجها – تجد صدى واسعا عندهم ، لأنها تلبي أهدافهم في المحيط الذي يعيشونه ويهتمون به ..

ولكن هل هذا هو " الإنسان " كما يجب أن يكون ؟

هل تقف اهتمامات " الإنسان " السوي عند الأوضاع المادية والمجالات النفعية ؟ أو عند الحياة الدنيا ؟

(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ..) [341] .

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) [342] .

فلو رفعوا اهتماماتهم – كما ينبغي للإنسان السوي أن يفعل – فهل تلبي تلك التجارب كل أهدافهم ؟

هل جربوا – مثلا – تأثير العقيدة في الإنسان ؟!

وأنّى لهم ذلك وهم لا يملكون عقيدة صحيحة أولا ، ولا يهتمون بها ثانيا ، ولا يرون لها أثرا واقعيا في حياتهم ؟! .

إن تأثير العقيدة الصحيحة في الإنسان لهو من أهم موضوعات علم النفس الإسلامي ، ومن أوسع مجالات الدراسة فيه ، وهو علم " تجريبي " ولكن مجال التجربة فيه ليس هو المختبر النفسي الضيق الذي يجرون فيه تجاربهم ! إنما هو التاريخ ! التاريخ باتساعه منذ كان في الأرض مؤمنون ، أي منذ آدم عليه السلام ونوح من بعده .. ولكن أبرز نماذجه وأروعها وجد في أمة محمد صلى الله عليه وسلم .. ووعاها التاريخ .

إن الحديث في هذا الموضوع حديث دائم على ألسنة الدعاة .. ولكنه لا يخص الدعاة وحدهم ، وليس حكرا عليهم . إنه " علم " لأنه " واقع " ، وليس واقع فرد معين ، بل أفراد ، بل جماعات ، بل أمة .. واقع فذ لا يمكن إغفاله ولا إغفال دلالاته . وعالم النفس المسلم لا بد أن يعطيه ما يستحق من الاهتمام من الوجهة العلمية البحتة ، ثم من أجل إيحاءاته التربوية وهي ظاهرة للعيان .

ترى كم خصصنا له من دراساتنا ونحن ننقل علم النفس عن الغرب المنحل ، الذي يعيش بلا عقيدة ؟

341() سورة النجم [29 – 30] .
342() سورة الروم [7] .

نعم ! إن علم النفس الغربي ، وعلوم التربية الغربية لا تغفل هذا البحث إغفالا كاملا – فهو أمر بشري لا يمكن تجاهله ولا يمكن إغفاله مهما كابر المكابرون – ولكنهم يعطونه حيزا هامشيا ، على قدر ما يرون أهميته في حياتهم ، أو على قدر ما يرغبون أن يكون له من الأهمية في حياتهم ! أما الباحث المسلم فأمره مختلف ، فحياته قائمة على العقيدة ، وتاريخه هو تاريخ عقيدته ، ورفعته وهبوطه متعلق بعقيدته ، ومصيره في الدنيا والآخرة مرتبط بالعقيدة .. فالحيز الذي ينبغي أن تشغله من فكره ، ودراسته ، وتجاربه ، وعلومه ينبغي أن يكون بمقدار ما لها من الأهمية في ذلك كله .

ولا شك أن الجيل الأول رضوان الله عليهم هم أبرز النماذج التاريخية لأثر العقيدة في النفوس . فهم الذين نقلتهم العقيدة الصحيحة تلك النقلة الهائلة من الجاهلية إلى الإسلام .. من الضياع إلى الوجود .. من الهامشية إلى المركزية .. من الجهل إلى المعرفة .. من الشتات إلى التجمع .. من الظلمات إلى النور . وهم أصلح النماذج للدراسة في هذا الموضوع . ولكنهم ليسوا وحدهم في التاريخ حتى يقول قائل إنهم نموذج لا يقاس عليه .. إنما هم نموذج متكرر على مدى التاريخ – بدرجات مختلفة – وهم الذين يكتبون أروع صفحات التاريخ !

فالذين غيروا ميزان الحرب في حطين تحت قيادة صلاح الدين لم يكونوا من ذلك الجيل الأول . والذين غيروا ميزان الحرب في عين جالوت تحت صيحة " وإسلاماه " لم يكونوا من الجيل الأول . والذين هزموا الروس في أفغانستان وفي الشيشان لم يكونوامن الجيل الأول . والذين يحتملون ما لا يحتمل من ألوان التعذيب الوحشي في سجون الطغاة ويظلون مصرّين على عقيدتهم ليسوا من الجيل الأول .. إنما هي ظاهرة تتكرر كلما وجد مؤمنون في الأرض ، والدارس المسلم أولى الناس بأن يدخلها في دراساته النفسية ، رضي " أهل الفن ! " أو أبوا ، واعترفوا أو لم يعترفوا بالنتائج التي تصل إليها الدراسة !

* * *

وهذا ينقلنا إلى الثغرة الثانية في التجارب النفسية التي يجريها الغرب ، ويستنتج منها معلوماته عن النفس الإنسانية (وقد سبق أن أشرنا إليه إشارة عابرة من قبل) .

هل العينة التي يجرون عليها تجاربهم ممثلة للنوع كله تمثيلا صادقا بحيث تعمم النتائج المستخلصة منها على كل البشرية ، ويقال – بحق – هذه هي النفس البشرية ؟!

إنها بحكم الواقع محصورة في هذا الجيل ، وفي بقعة واحدة من الأرض ، هي التي تجري فيها التجارب في الوقت الحاضر . فمن قال إن الغرب هو كل البشرية ؟ ومن قال إن الحاضر هو كل التاريخ ؟! وبالتالي : من يقول إن النتائج التي تستخلص من هذه التجارب نتائج نهائية كالنتائج التي تجري على المادة ، أو حتى على الحيوان ؟

إنما ينقصها لكي تكون معبرة عن هذا الجيل – ودع عنك تمثيلها للبشرية كلها في جميع أجيالها – أن تجري في أماكن مختلفة من الأرض ،

من بيئات مختلفة ، من ثقافات مختلفة ، من عقائد مختلفة ، من رواسب تاريخية مختلفة ، ثم يقال في النهاية – في تواضع " علمي " تمليه روح العلم ذاته – هذا ما وجدناه في تجاربنا في هذا الجيل ، في المجالات التي يمكن أن تجري عليها التجارب من مجالات النفس الإنسانية ، ونتائجها مع ذلك ظنية لا يؤمن تعميمها على الواقع كله ، لا في هذا الجيل ولا في أي جيل !!

هل معنى ذلك أن نلغي الأمر كله وننفض أيدينا منه ؟!

كلا ! ولا يجوز لنا أن نهدر الكم الهائل من المعلومات التي حصلنا عليها من هذه التجارب ، ولا الفوائد العملية التي جنيناها منها ، وخاصة في مجال التعليم ، فضلا عن مجالات كثيرة أخرى .. إنما فقط علينا أن نتواضع بعلمنا ، ونعلم منذ البدء أن هناك آفاقا من العلم بالنفس البشرية لا تصل إليها تجارب المعمل ، ولا بد من الرجوع فيها إلى علم فوق علم الإنسان .

* * *

ثالثة الأثافي هي علم النفس التحليلي ، الذي يمكن أن نطلق عليه بحق علم تبرير الجريمة ! أو علم تزيين الجريمة !

لقد ذهب فرويد مؤسس هذا العلم ، وذهب الاهتمام الذي كان قائما حوله حتى الستينيات من هذا القرن في الغرب ، ولكن العلم الذي أسسه – إن سمي هذا علما – ما زال يعيش في العيادات النفسية المنتشرة في الغرب ، والتي أصبح من الأمور المعتادة فيه – إن لم يكن من الضرورات – أن يرتاد الإنسان – فتى أو فتاة ، رجلا أو امرأة – إحدى العيادات النفسية على فترات تختلف باختلاف " حالة " كل شخص ، وقد تصل أحيانا إلى مرة كل أسبوع !

وفي المعتاد يقول الطبيب النفسي للمريض الذي يعالجه " أنت تعاني من الكبت . من عقدة نفسية أو أكثر . انطلق ! هذا علاجك " !

عقدة التحليل النفسي أنه يسقط " الإنسان " ، إذ يسقط الإرادة الضابطة في الإنسان ، ويفسر الأمور على أساس جبرية نفسيه لا تدع للإنسان مجالا للاختيار .. هذا في مجال تبرير الجريمة . ثم يدعو إلى إطلاق الشهوة البهيمية على أنها علاج للكبت .. وهذا في مجال تزيين الجريمة . وفي كلا المجالين يتعامل مع الحيوان وليس مع الإنسان .

وعلى الرغم مما تكشف للناس من التزييف الواضح في نظريات فرويد الخاصة بالتفسير الجنسي للسلوك البشري ، ومن اعتماده في نظرياته على المرضى والشواذ ، وتعميم الملاحظات المستقاة من حالاتهم على الأصحاء والأسوياء [343] ، فما زالت السموم التي بثها قائمة في مجالات كثيرة ، من بينها العيادات النفسية التي أشرنا إليها ، ومن بينها الإعلانات التي يستخدم فيها الجنس للإغراء ، والتي تبثها وسائل الإعلام على مدار الساعة في كل الأرض !

343() لا يرى فرويد أن هناك في البشر من هو سَوِيّ ! ويقول صراحة إن كل الناس مصابون بهذا النوع أو ذاك من الأمراض النفسية والعصبية . وقال في كتاب " Three contributions " " ص 32 " نحن جميعا مصابون بالهستريا إلى حد ما ! We are all hysterical to some extent .

وحين توارى فرويد عن الساحة – أو عن مكان الصدارة في الساحة – فقد خلفته مدرسة أخرى لا تقل عنه سوءاً في تصورها وتصويرها للإنسان . وهي المدرسة السلوكية التي لها السيادة اليوم في الدراسات النفسية ، والتي تعتمد اعتمادا أساسيا على تجارب المعمل ، ولكنها تستمد تجاربها أساس مـن عالم الحيوان ، ثم تجريها – بنجاح ! – على عالم الإنسان !

كلتا النظرتين : نظرة فرويد ونظرة السلوكيين ، تفسر جوانب من الإنسان ، ولكنها لا تحيط به ، ولا تستطيع أن تفسر المقامات العليا من النفس البشرية ، التي لا تصل إليها " جنسيات " فرويد ، ولا تجارب السلوكيين .

* * *

لا مناص لنا عند التأصيل الإسلامي في الدراسات النفسية من الرجوع إلى المصادر التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، لتكون أساسا لأبحاثنا ومنطلقا لدراساتنا وتجاربنا .

يقول الخالق سبحانه وتعالى عن خلق الإنسان :

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) [344] .

فنعلم من هذا المصدر الموثوق أن الإنسان قد ركب من عنصرين : قبضة الطين ونفخة الروح .

ثم نعلم من ذات المصدر أن نفخة الروح منحت قبضة الطين صفات لم تكن لها من قبل ، نترجمها بمصطلحاتنا اللغوية بأنها الوعي والإرادة والحرية ، والتي تأتي الإشارة إليها في القرآن الكريم في لفظة " الأفئدة " ومرادفاتها .

وأن الله أودع في فطرة الإنسان أن يعرف خالقه ويتوجه إليه بالعبادة (أي الدين) :

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا) [345] .

(.. فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) [346] .

وأن بعض الفطر تعتل " فيطبع " الله على قلوبها ، فتضل عن خالقها فتعبد سواه .

وأن الله خلق في الفطرة نوازع شتى ، هي بمثابة الدوافع التي تدفعه للعمل والنشاط ليحقق مهمة الخلافة التي خلق لها ، والتي من مهامها عمارة الأرض :

344() سورة ص [71 – 72] .
345() سورة الأعراف [172] .
346() سورة الروم [30] .

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [347] .

(هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) [348] .

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) [349] .

ولكنه لم يتركه مع هذه الشهوات بلا ضابط ولا قدرة على الضبط ، فإن " الأفئدة " التي جعلها الله للناس هي أداة الضبط التي يضبط بها الإنسان شهواته . وهي فطرية كالدوافع سواء بسواء :

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [350] .

والإنسان السوي يستخدم الدوافع والضوابط معا فيتوازن وتستقيم حياته . أما إذا أحجم عن استخدام الضوابط الفطرية فإنه يهلك بشهواته ، تشقيه في الدنيا وتورده النار في الآخرة .

وقد خلق الإنسان لعبادته :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [351] .

و " الصحة النفسية " بالنسبة له هي أن يكون كيانه كله : فكره ومشاعره وسلوكه في الاتجاه الذي يحقق غاية وجوده ، أما إذا انحرف بفكره ومشاعره وسلوكه عن تحقيق غاية وجوده ، فقد يستمتع ولكنه متاع الحيوان ، ولا بركة له في حياته ولا اطمئنان :

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ) [352] .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) [353] .

ثم إن الإنسان ليس أحادي الاتجاه كالحيوان ، إنما مزدوج الاتجاه (كما أنه مزدوج التركيب) ومن أجل ذلك فإن له في كل لحظة وفي كل حالة طريقين اثنين يختار أحدهما ، أحدهما يوصف بأنه خير والآخر يوصف بأنه شر ، وقد وهبه الله القدرة على التمييز بين الطريقين ، والقدرة على اختيار أحدهما :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) [354] .

347 () سورة البقرة [30] .
348 () سورة هود [61] .
349 () سورة آل عمران [14] .
350 () سورة النحل [78] .
351 () سورة الذاريات [56] .
352 () سورة محمد [12] .
353 () سورة طه [124] .
354 () سورة الشمس [7 – 10] .

والطريق الذي يوصف بأنه خير هو الذي يكون فيه ملتزما بأوامر الله ونواهيه ، وعندئذ يكون قائما بواجب الشكر لله . أما الطريق الذي يوصف بأنه شر فهو الذي يكون فيه عاصيا لله ، كافرا بنعمته :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً) [355] .

(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) [356] .

وبسبب وجود هذه الخاصية فيه ، وهي أن له طريقين ، وله القدرة على التمييز بين الطريقين واختيار أحدهما فإن أعماله – خلافا لأعمال الحيوان – ذات قيمة أخلاقية مصاحبة لها ، لا تنفك عنها ، فالخاصية الأخلاقية جزء من فطرة الإنسان ، أي أنه كائن أخلاقي بطبيعة تكوينه ، وليست الأخلاق – من حيث هي – مفروضة عليه من خارج كيانه كما تزعم بعض المدارس الغربية . إنما الذي يمكن أن يكون مفروضا عليه من خارج كيانه هو المعايير التي تحدد ما هو خير وما هو شر ، لا إعطاء الصفة الأخلاقية للعمل ، كما يزعم فرويد ودوركايم والسلوكيون . وحتى المعايير التي يضعها الله سبحانه وتعالى بصفة أنه سبحانه هو الخالق ، وأنه هو العليم الحكيم ، فليس كلها يفرض على الإنسان من خارج كيانه ، فإن الفطرة السليمة تتجاوب معها ، وتجد أنها مقبولة لديها ، لأن الله أودع الفطرة استحسان الحسن واستقباح القبيح بصفة عامة ، فأصبح اللقاء بين الفطرة ودين الفطرة سهلا ميسرا محببا لذوي الفطرة السليمة على الرغم مما فيه من التكاليف ، وإن كان الهوى يغلب النفس أحيانا فيختل تقديرها للخير والشر ، أو يجيء الاختلاف بسبب عدم الإحاطة وقصور الرؤية البشرية عن تقدير النتائج التي يمكن أن تترتب على العمل .. فيكون الملجأ في جميع الحالات هو اتباع ما أنزل الله .

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) [357] .

كذلك يلاحظ أن في تكوين النفس الإنسانية أدوات للتوازن تحفظ اتزان الإنسان حين تكون بمعاييرها التي أنزلها الله ، مما يمكن أن نسميه " الخطوط المتقابلة في النفس الإنسانية " مثل الحب والكره ، والخوف والرجاء ، والإيمان بالمحسوس والإيمان بما لا تدركه الحواس ، والفردية والجماعية ، والواقع والخيال ، والسلبية والإيجابية .. وكل منها قوة ضاغطة أو جاذبة ، فإذا كان كل منها في مكانه الصحيح اعتدل الإنسان وتوازن في نقطة الوسط المتوازن التي يكون الإنسان فيها في أحسن تقويم ، أما إذا اختلت أو اختل بعضها في النوع أو المقدار فهنا يفقد الإنسان توازنه ، ويحتاج إلى تقويم [358] .

* * *

تلك خلاصة سريعة للتطور الإسلامي للنفس البشرية .. وواضح أنه يختلف عن التصور الغربي السائد اليوم في أمور أساسية ، وإن التقى معه

355() سورة الإنسان [3] .
356() سورة البلد [10] .
357() سورة البقرة [216] .
358() اقرأ إن شئت فصل " خطوط متقابلة في النفس البشرية " من كتاب " دراسات في النفس الإنسانية " .

في بعض الجزئيات . ومهمة الباحث المسلم في الدراسات النفسية أن يستحضر معه دائما هذا التصور الإسلامي ، ثم ينطلق منه ليبحث في جميع المجالات التي يشملها علم النفس ، وخاصة في مجال التربية والتعليم ، وفي مجال الدعوة ، وهي التي تهم الباحث المسلم بصفة رئيسية .

أما التفصيلات فالمجال واسع لدراستها ، وإجراء التجارب عليها ، وتفسيرها ، ومحاولة تقنينها . وهو لا يبدأ في هذا الأمر من فراغ ، فكثير من علماء الإسلام السابقين قد خاضوا في هذه المجالات وأدلوا بدلوهم فيها ، وعلينا أن نعيد اكتشاف ما كتبوه ، ثم نضيف إليه ما يهدينا إليه البحث المستنير .

وإن من الموضوعات التي يجدر بالباحث المسلم أن يعكف عليها ويوليها اهتمامه ، هذه الموضوعات على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر :

- تأثير العقيدة في تشكيل النفس الإنسانية .
- تأثير العقيدة في إنشاء حالة الاتزان العاطفي والسلوكي عند الإنسان .
- تأثير العقيدة في دفع الإنسان إلى بذل الجهد والمثابرة عليه .
- الظاهرة الروحية عند الإنسان (التليباثي – الاستشفاف – الرؤيا الصادقة) .
- الإيمان بالغيب عند الإنسان وتفرده به عن الحيوان .
- مكان الدين من الفطرة .
- نشأة الضمير عند الطفل .
- نشأة القيم العليا في الفرد والمجتمع .
- دور العقيدة في علاج الاضطرابات النفسية والعصبية .
- التكوين النفسي للرجل والمرأة ، وعلاقة هذا التكوين الفطري بالدور المنوط بكل منهما ، وهل هما متماثلان أم متكاملان مع الاختلاف .

وفي كثير من هذه الموضوعات سيجد الباحث المسلم نفسه رائدا .. وسيجد نفسه في أحيان كثيرة يسبح ضد التيار . فليعزم العزمة الصادقة وليمض في الطريق !

بين الواقع والمثال

ربما يكون قد اتضح لنا من الجولة السريعة التي قمنا بها في الفصول السابقة مدى البعد بين الصورة التي ننقلها عن الغرب في العلوم الاجتماعية وندرسها لأبنائنا في المدارس والجامعات ، وبين الصورة التي يفترض أن تكون لدى المسلم الذي يستمد مفاهيمه من الإسلام ، ويكون قد تبين لنا في الوقت ذاته مدى حاجتنا إلى التأصيل الإسلامي لهذه العلوم ، وإن بدت المفاهيم الإسلامية غريبة على كثير من الناس الذين تعودوا أن ينظروا إلى الأمور بعين الغرب ، ولا يرون فيها انحرافا ، ولا يرون أنها تحتاج إلى تعديل . ففي الغربة الثانية التي تحيط بالإسلام اليوم ، والتي أخبر عنها الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم قبل أربعة عشر قرنا حين قال : " بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ " [359] ، تبدو المفاهيم الإسلامية كأنها مثل غير قابلة للتطبيق في عالم الواقع ، ويبدو الواقع المنحرف كأنه هو الأصل في الأشياء ! وهذه النظرة بالذات هي أول ما يسعى إلى تصحيحه التأصيل الإسلامي في هذه العلوم !

وليس معنى ذلك أننا ندعو إلى العزلة عن العالم ! فأنا لم أدْعُ إلى العزلة قط ، ولم أمارس العزلة ، بل إني أجتهد بقدر وسعي أن أطلع على أفكار القوم وممارساتهم ، وأجد ذلك أمرا ضروريا لي ، بل أقول – أكثر من ذلك – إن اطلاعي على أفكار الفوم وممارساتهم هو الذي نبهني إلى كثير من مجالي العظمة في دين الله ، حين أعقد المقارنة بينها وبين ما يجري في الجاهلية المعاصرة ، تصديقا لقول الفاروق رضي الله عنه : " لا يعرف الإسلام (أي لا يعرفه على حقيقته) من لم يعرف الجاهلية ! " فأنا أعدو إلى الاطلاع على ما عند الغرب ، ولكنّ هناك فرقا بين اطلاع المأخوذ ، الذي يتلقف كل شيء يجده هناك كأنه غنيمة عثر عليها ، وبين اطلاع المستبصر بنور الإسلام ، الذي يعرض عن الغث ، وينتقي الثمين .

أما الغربة فقد وجهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إزالتها ، فقال في الحديث الآنف الذكر ، بعد أن أخبر عن غربة الإسلام الثانية " فطوبى للغرباء ، يصلحون ما أفسد الناس من سنتي " [360] .

ولن تتأتى إزالة الغربة إلا بالدعوة ..

والدعوة كما أشرت في أكثر من كتاب هي بيان حقيقة الإسلام ، ثم التربية على مقتضيات الإسلام [361] . والتربية تشمل تثبيت العقيدة الصحيحة ، وتقويم السلوك بما يتناسب مع مقتضيات هذه العقيدة .

والثقافة الصحيحة هي جزء من التربية المطلوبة . فكما ندعو إلى تصحيح العقيدة وتقويم السلوك ، ندعو كذلك إلـى تقويم الثقافة لتتمشى مع العقيدة الصحيحة والسلوك الصحيح .

359() سبقت الإشارة إليه .
360() رواه الترمذي .
361() انظر على سبيل المثال " واقعنا المعاصر " .

ونعلم بطبيعة الحال أن هذا الأمر لا يتم بين يوم وليلة ! فلا بد من جهاد طويل لإرجاع الأمة إلى حقيقة الإسلام التي غفلت عنها ردحا من الزمن ، فأصابها ما أنذرها به رسولها صلى الله عليه وسلم : " يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل " [362] .

وجزء من حالة الغثاء التي تعيشها الأمة اليوم ، راجع إلى غلبة الفكر الدخيل ، وتلقفها له على أنه طريق الخلاص ، بينما أصحابه أنفسهم قد بدءوا يحسون بما فيه من عوج ، ويبحثون عن البديل !

وقد أثبتنا نموذجا من ذلك الإحساس بضرورة التغيير في مقدمة الكتاب ، حين ذكرنا مقتطفات من محاضرة الأمير تشارلس ولي عهد بريطانيا ، التي قال فيها إن الغرب في حاجة إلى معلمين مسلمين يعلمونه كيف يتعلم الناس بقلوبهم كما يتعلمون بعقولهم !

وأضيف هنا أن هناك اتجاها في غرب أوربا وأمريكا ، يتزايد أنصاره كل يوم ، يدعو إلى فصل البنات عن البنين في جميع مراحل التعليم من الابتدائي إلى الجامعة ! واتجاها متزايدا إلى ما يطلقون عليه " التعليم المنزلي : Home Schooling " ، وقاية للأولاد والبنات من مخاطر الاختلاط ، ونحن في بلادنا ما زلنا ندعو إلى مزيد من الاختلاط !

نعم ! هنالك بدء يقظة على مستوى الأرض ، بدأت تحس بالعوج ، وتبحث عن البديل .. ولا يعلم إلا الله وحده مصير هذه اليقظة ، والمدى الذي تحتاج إليه ، وإن كان في تقديرنا أنها قد لا تؤتي ثمارا واضحة قبل قرن من الزمان ، تنفض فيه البشرية عن نفسها ما غرقت فيه من الدنس الفكري والسلوكي ، وتقبل البديل ..

والبديل هو الإسلام !

هو الذي أنزله الله ليصحح خطى البشر على الأرض ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور :

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [363] .

والمسلمون أولى الناس أن يعوا إسلامهم ، ويرجعوا إليه .

والتأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية جزء من الوعي المطلوب ، يحتاج أن يُبْذَلَ فيه الجهد ، ليؤتي ثماره مع الدعوة إلى الله ، ولو على المدى الطويل .. فطريق الدعوة كله طويل ، ولكنه هو الطريق الواصل بإذن الله :

362() سبق ذكره .
363() سورة المائدة [15 – 16] .

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) [364] .

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) [365] .

موقعنا على الانترنت

منبر التوحيد والجهاد

http://www.tawhed.ws
http://www.almaqdese.com
http://www.alsunnah.info

الدّال على الخير كفاعله

الفهرس

مقدمة
ظروف أوربا
أحوال الأمة الإسلامية
كيف يكون التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية
خطوط عريضة في التأصيل الإسلامي
1- في علم الاجتماع
أولاً : السنن الربانية
ثانياً : الثابت والمتغير في حياة البشرية
ثالثاً : الدين والفطرة
رابعاً : الأسرة والمجتمع
خامساً : علاقات الفرد والمجتمع
2- في التاريخ
3- في الاقتصاد
4- في التربية
5- في الدراسات النفسية
بين الواقع والمثال

364 سورة الصف [9] .
365 سورة الأنعام [153] .

الدّال على الخير كفاعله